صهيل الفراشة

www.ebibliomania.com

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
ببليومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
insta:books.bibliomania/
Books ـ ببليومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

صهيل الفراشة

رواية لـ

سعيد موزون

ببلومانيا للنشر والتوزيع

نوع العمل: رواية

اسم العمل: صهيل الفراشة

اسم المؤلف: سعيد موزون

تدقيق لغوي: فريق ببلومانيا

اعداد ومراجعة: فريق ببلومانيا

تصميم الغلاف: عبد الرزاق طواهرية

رقم الإيداع: 2018/21233

الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6607-56-3

الناشر /دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

المدير العام / جمال سليمان

تليفون /26061014 (20+)

هاتف محمول/ 1208868826 (20+) - 1065534541 (20+)

صفحة الدار على موقع فيسبوك:

https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

الطبعة الأولى 1439 هـ - 2018 م

تنويه: ما ورد في هذا الكتاب يعبر فقط عن وجهة نظر كاتبه

إلى ذكرى والدي لَحْسن..
كَمْ كان الموتُ حارقا وفظيعا وهو يمارس هواية الحصْد..

محطة القطار- مراكش

وأنا أنتظر لحظة إقلاع القطار يا "كْلُّو" جلستُ داخل باحة الانتظار أرتعد من البرد والعشق، فيزيد رداءُ الصباح وخيوطُه من أوجاعي، فأنكمشُ في أضلاعي لعلي أتخفف من خاصرة الحزن الذي تحفّني وتداهمني اللحظة..لم ألتفتْ لحركة المسافرين من حولي، لا أسمع غير اصطكاك أسناني وأنا آكُلُ كطفل صغير قِطَعَ البطاطس المقلية "شيبس" لأدغدغَ الجوع الذي اكتسحني الآن، وأتأمل النسوة الأوروبيات لعلي أرى في واحدة منهن وجهكِ فأغيب فيه للحظات، أفرغتُ الورقة الشفافة من البطاطس المقلية ووضعتها في جيب سُترتي، هه..! انقدحتْ فكرة، أخذتُ الورقة، فبدأتُ أكتبُ قصة قصيرة ريثما تنادي السيدة في مكبر الصوت لنلتحق برصيف القطار:"لَكَمْ وددتُ أن أبتلع مياه "مضايق تودغى" كلها، وأوقف نبض تنغير كلها، حتى أسمع همساتكِ وأنتِ تبتسمين وتلامسين بقدميْكِ الزجاجيتيْن ماء المضايق البارد، كنتُ أقول: ما بالُ جسدكِ كالمومياء ملفوفا بالثوب الأزرق، ويبدو نحيفا يرتعد من العشق ومني..؟ ولكن..لَمّا سَكَنَ الشوقُ وهدأ، حملتُ نفسي على ظهري.. وكان لابد من ذلك..كنتُ دَهِشاً شاخصَ البصر في التراب الأحمر أمامي..ياه..! كانت هنا.. جاءتْ برقةِ نسيمِ السَّحَر تمايلُ في ثوب أزرق غُسِّلَ بماء الوجد، وقلبي يَتَفَعَّى

ويتراقص من فرط الفرح والابتهاج، دنتْ مني وأنا أكاد أخرجُ من نفسي لِأَحُلّ فيها.. سقطتْ مني بعض الكلمات القديمة التي أستعين بها لِمَاماً على تَتَعْتُع ما أريد أن أقول كلما مثلتْ أمامي .. ازداد وَجْدي واعترتني الرجفة حتى لأحسبُني لو دَفَعَتْني برفق سقطتُ أمامها كمسمار يُرمى في بحر لجيّ ..

حدقتُ في الحفرة والتراب الأحمر بجانبها: يا هذا الطهر والكمال ماذا أنت؟ لم تعد تكفيني الكلمات عند كل لقاء لِذُبُولِنَا! ربما أكونُ مبالغا أو مُخَرِّفاً، لكنها الحقيقة الساطعة! لا يجتاحني ريبٌ أن الخرافة لا تتسلل لا إلى عينيّ ولا إلى قلبي ولا إلى لساني، استنفذتُ كل ما أملك، ولم يعد ما أملكُ قادرا على وصف ما لا أملك، حتى ما كنتُ أملكُ من جوارح وقلب ووجدان وكلمات.. أواه يا رباه..! ثَقُلَتْ عليّ نفسي، وثَقُلْتُ أنا على نفسي، وما أظنُّ القليل الذي لديّ من لحم ودم قادراً على استئناف حملي وحملك..!

وحينَ أُسْلَخُ برموشكِ وعينيْكِ الخضراوينْ أعودُ إلى نفسي مُبعثراً كَامرأة في أيام حيضها، ولكن صدقيني إنه سَلْخٌ عَذْبٌ يتقشّرُ فيه كلس الوجد، ويتطهر مما ترسب فيها من عفَن لا قِبَلَ لي به، ولا أعرف من أين مأتاه! ويا ويلَ من أصغى إلى هفهفة ابتسامتكِ، أو دنا من همسها وحياءها! أو تنسّمَ نسيمَها الساحر، لا شكّ أن دقات قلبه ستخرج من فمه، ونراها دما مندملا فائرا متطايرا بشكل مضحك في الهواء ..

آه يا كلُّو! هذا القارئ المفترض الذي أكتبُ له تأخذني الشفقة عليه إلى أن أهمس في أذنيْه وأقول له: باعدْ بينكَ وبين ما تقرأ حتى لا تُلْفَحَ أنفاسُكَ بما

أصف وأقول، آه يا هذا المسكين..! لقد أفسدَ آخِرُكَ أَوَّلَكَ .. لعلي أفسدتُ قلبكَ عليكَ! كنتَ في ما مضى منكَ في غفلة وراحة من هذا الذي أقول، لكني أراكَ الآن زائغ النظرات شاردَها، وفَمُكَ كالمنطاد حين يكتسح بطنَه الهواءُ ينتفخ ويتعاظم في الانتفاخ رغما عنه، والريق يتحلبُّ فيه دهشة وعجبا مما تسمع وتقرأ! ربما تدفعُ عن نفسكَ هذا الوهم، ولكنه ليس وهماً، ودونكَ الدليل: أمضي .. أغمغم .. أتمتم .. أمشي ثم ها أنا أُهمهمُ - في شرود وغيابٍ تامّ عن نفسي - بأغنية عذبة: "آشْ هَادْشِّي أَحَبُوبِي عِيبْ أُوخَافْ مْنْ ذْنُوبِي .."

لسوف تمضي حين تفرغ مني، وحين يهبط الليل إلى الفراش، لتقابل النومَ على السرير، ولسوف تحضركَ صورة حبيبتي أو بعض معالمها هناك، فتتشوق لتراها أو لتصنع لها صورة من خيالكَ: اِنْحَتْ لها من خيالك صورة.. وهماً.. سديماً..! اُرسمها كما يروق لكَ.. ابتعدْ من هذه الصورة التي رسمتها وانظرْ ماذا ترى؟ ماذا يظهر لكَ فيها؟ آه.. لا تجعلني أضحك منكَ وعليّ .. لهفَ نفسي عليكَ لن يظهر لك شيء من ذلك.. ستخلد إلى نومكَ فارغ اليد منها، ولسوف تحتضن السراب والهباء وكفى بهما أنيساً، فقط لأن صورتها لا تفرُّ من ذاتها إلا لتقابل خيالا وحيدا هو : أنا.

إذن اِغمضْ عينيك بلا مقاومة أو عناد، وأقحِمْ خيالكَ في خيال غير خيالها، فكل ما دَاخَلَ خيالك خلافها، فَعَزِّ الفؤاد عزاء جميلا وَرَبِّتْ عليه لِتُسْكِتَ أنينه، لا سبيل على الإطلاق إلى مثولها في خاطركَ واتّضاحها في أرجائه، ولا أرى داعيا لمحاولةٍ تعرف مسبقا أنكَ خاسر في نتائجها! ضَعْ هذا

الخيال المحموم في ثلاجة، أو فكّرْ في شيء آخر، وَمَا لَكَ لا تستنزلهُ من رأسك! ربما كان ذلك خيرا لك ولي..

يكفي.هذا يكفي. تدارَكْ ما كان منكَ، وانسَ هذا الأمر إلى الأبد .. اِطوِهِ.. لا فائدة من الطواف حوله .. فلا تواجه أمرا أنتَ لا تفهمه!

ثم أعود إليكَ .. وتعودُ إليّ هي وقد التحفَنَا الحزن في موكب جنائزي، تترأسه خيوطُ الدموع المتلاحقة على خدٍّ لم أعدْ أحسّ بما يحدث فيه وعليه، أقول وعينايَ متورمتان بالدموع:

- القَتَلَةُ الصّغار دفنوكِ في غيابي..انهضي يا سِراجي..أنا الكبريت الأحمر كما يحلو لك أن تقولي..حدثيني..قولي شيئا..

يسحقُني الحزنُ كما تُسحقُ وردةٌ ذابلة، لكني فجأة ارتميتُ على القبر، وبدأتُ أحفر بيدي ورجلي و..أسناني، فالتقطتُ أنفاسي لأمسح حبّات العَرَقِ عن جبيني الأسمر، ولأتأهب لِسَحْبِ حبيبتي التي دفنوها تحت التراب الأحمر من ثوبها الأزرق، وحينما.."

حينما أردتُ أن أرى حبيبتي التي دفنُوها تحت التراب الأحمر لم أرها، وإنما رأيتُ الورقة الشفافة أمامي وقد امتلأتْ في كلا الصفحتيْن، ولم تعد تكفي لأخرجَها من قبرها بثوبها الأزرق، ليس هذا فقط بل لأن السيدة التي تنادي على المسافرين المتجهين من مراكش إلى طنجة ليلتحقوا بالسكة رقم ٢ لم تمهلني لأفعل ذلك، فطويتُ الورقة الشفافة في جيب سترتي، وهرولتُ مُتَعَثّرَ القلبِ

والخاطر مُبَعْثَرَهُ أُلاَحِقُ جماعة من المسافرين إلى المخرجِ المفضي إلى السكة، وأنا قلقٌ جدا لأني لم أتمكن من سَحْبِ حبيبتي من قبرها..

محطة القطار- سطات

..توقفَ هديرُ القطار وخمدتْ أنفاسُه رويدا رويدا على السكة..لا أذكرُ متى ابتلعَنِي النعاسُ، ولكن يبدو من عينيّ الدعجاوِيْن الآن ورأسي الثقيل أن النُّعاسَ اللعينَ كان يتخطَّفُنِي منذُ صعدتُ من مراكش..تَثَاقَلَتْ عيناي ودَاهَمَنِي تَثَاؤُبٌ فاحشٌ حينما انبجسَ منهما الدمعُ النائمُ، تثاءبتُ كقطة شبعانة..المرأةُ ذاتُ المعطف الأحمر التي كانت قبالتي، أين هي..؟ يبدو أنها نزلتْ..لكنها خلَّفتْ وراءها حقيبة سوداء، يا إلهي..! ظننتُ أنها ستعُود حَالَمَا تُدرِكُ أنها قد نسيَتْهَا على الكرسي الأزرق داخل مقصورة القطار، لكنها لم تفعل..امرأةٌ في الأربعين تفور بالأنوثة، ويضجُّ نَهْداها بالربيع، ويشع من عينيها جَنَاحَا فراشة كسيرة، ويطل من وجهها القمحيّ وجهٌ آخر يفضح ابتسامتها المصطنعة التي ترتسم عليه كلما عدتُ من نعاسي حين يهتز القطار من تحتي وينحرف في مسار جديد..الحقيبة..؟ اللعنة..أووووف..!كنتُ متلهفا لأسلمها إياها ربما في اللحظة التي طفقَ فيها ميلان العمارات الحمراء والبيضاء يهدأ هناك أسفل الجسر، لكن القطار الآن مرقَ من المحطة وانطلق مخترقا ظهر السكة وهو يخر حديدها -كسفينة تجري في موجٍ من الصدأ- ويمضي لكي لا يعود..

استسلمَ ذقني الأمرد لِيَدِي المتكئة على زجاج النافذة، لِنَبِيذِ اللحظةِ التي تغمرُني وأنا أظن أني قد حصلتُ على صيدٍ ثمينٍ داخل الحقيبة، فتهزُّني رعشةٌ عذْبةٌ للتوقفِ في الدار البيضاء لأعود إلى تنغير مع أول قطار مقفل إلى مراكش، الركابُ النازلون من القطار في محطة سطات تطايروا إلى الوراء، وبصري جامد في شحوب الرصيف الرمادي ولا يشعر بالبنايات المتصدئة والأشجار والسيارات التي تتطاير إلى الوراء، والمرأةُ الأربعينية كانت قد تطايرت إلى الوراء بعد نزولها، ولَمْ تُلوِّحْ لي بيدها ولا أَمَلَ لتسليمها الحقيبة.نَهَشَنِي الفضول، أرسلتُ يدي كَرَأْسِ أفعى إلى الحقيبة لأفتحها..آه..نَعَمْ، يدي، المجنونة قَطَعَهَا الله..! اللعينة أَحْرَقَهَا الله..! ترددتُ في البداية لكني وضعتُها داخلها، ثم كمن لَدَغَهُ ثعبانٌ تراجعتُ فَسَحَبْتُهَا للتَّو.. وضعتُ الحقيبة جانبا، تأملتُها فَتَمَثَّلَ لي فيها مُفَزِّعُ بستانٍ مليءٌ بالقشّ والمخدرات والحشيش والقنّب الهندي، وتمثَّلَ لي أقربُ سجن إلى المحطات المقبلة: محطة لوازيس و محطة الدار البيضاء-مسافرين ..

انقبضَ قلبي بعنف، غاص قلبي في غياهبِ الندم، ثم ابتسمتُ بعد أن قلتُ في نفسي: إن أمسكتْ بي الشرطة وأصرّتْ على إلصاق التهمة بي سأقول: على كل حال هو قنّب مغربي وليس هنديا..هههه..، طردتُ هذا الوسواس، داهمني الذعرُ، خفتُ مثل فراشة، فكرتُ في التخلص من الحقيبة كما أتخلص من جمرة حامية، أردتُ أن ألقيها من النافذة، لكن من يدري ربما بداخلها أوراق ووثائق إدارية تَهُمُّ السيدة..لَمْ أُلْقِهَا، أعدتُ الجمرة إلى الكرسي الأزرق، تذكرتُ مُراقب التذاكر، لكني لم أسلّمها له.ثم ..كَحِصَانٍ يسقطُ من جبلٍ إلى هاوية فَتَحْتُ

الحقيبة..فكانتْ هذه الرسائلُ المدهشةُ وسط مذكرة أنيقة متوسطة الحجم، تفوحُ منها رائحة عطر نسويّ مُنعِشٍ يُعطّلُ الحواس.. يا إلهي..! رسائلُ هنا كثيرة كأوراق التلاوة القديمة التي يضعُ فيها العطّار مساحيقه للنساء، وقصاصاتٌ مخبأة بعناية في باطن الحقيبة، وبين الثنايا في جانب مِشَدّ الحقيبة أشعارٌ بديعة الخط، وكتاباتٌ كأنها هيروغليفية تملأ كل فضاء أبيض في الورقة الواحدة، لكنها كلها كُتِبَتْ بخط مُدْهِشٍ ومُذهل وأنيق..! على الهامش الأيمن وعلى اليسار وفي أسفل الورقة وأعلاها، وعلى الحواشي والفراغ الذي بين السطور، يبدو أن الرسائل مُرَقَّمَة ومُوَقَّعَة باسم:صباح ومحمود، لستُ أدري هل هي مرتبة أم لا؟ الرسائل الأولى، رقم (١) و(٢) أين هي..؟ ربما سَقَطَتْ من هذه السيدة سَهْواً، أو أَخَذَتْهَا معها في جيب معطفها الأحمر..لستُ واثقا، الرسائلُ مكدسة كأنها حزمةُ عطّار، ما الذي سأفعله الآن؟ هل أخبر مُراقب التذاكر بالأمر ليعيد الحقيبة إلى السيدة عند أول محطة في البيضاء؟ أم أقرأ الرسائل أَوَّلاً فأروي فُضولي وبعدها فليكنْ ما يكون؟ أم أتصلُ بهذا الرقم المكتوب على ظهر رسالة...؟ لستُ أدري! المهم سأبدأ بإحداها الآن..فَلْأَبْدَأْ بالرسالة رقم (٣) ما دُمْتُ لم أَعثُرْ على رقم (١) و(٢)، ولا أدري أين رَقَدَتَا..!

الرسالة رقم (٣)

عزيزتي صباح..

قد قرأتُ جوابكِ على رسالتي رقم (٢)، ربما كان عليّ أن أُرتّبَ أطماري-كما قال حارس المدرسة- قبل المجيء إليها، لكن أقولُ لكِ الذي لا تعلمين بعدَها حينما عدتُ إلى بيتي:

ابتلعَني النومُ وقتئذٍ في حجرتي في يومٍ لا يُنسى..استيقظَ الفجرُ بأنفاس شاحبة، وكان عليَّ ألا أفيقَ من نوم لذيذ كنتُ في حاجة إليه لأنسى وجودي البائس ولو لِلَحَظَاتٍ.. الغرفةُ - مثل فندق قديم حقير- أَلِفَتْ -كما أنا- الصراصيرَ والفئرانَ ورائحةَ التبغ المنبعثة من البيت المجاور أسفل الباب، لطالما استيقظتُ في كبد الليل مذعورا ومشتعلا بالغضب،لأطارد الصراصير والفئران والزواحف والأشباح، وَلَمّا يئستُ وتعبتُ استسلمتُ لشغبها وعربدتها، فأصبحتُ صديقا للصراصير التي لا أتضايقُ من تسللها تحت سروالي، ومداعبتها لشعيرات ساقي..على كل حال عربدةُ الصراصير أهونُ من تلك التي تأتيها العُلُوج..!

- قَشْعِرِينِي أيتها الصراصير الصديقة..! قَشْعِرِينِي أيتها الرائعة ..!

هكذا كنتُ أزأرُ كأسدٍ جريح حين أتأملُ أصحابي الصراصير يلتهمون كل شيء، أنا لا أعبأ بدبيب الفئران المُدَوِّي من فوق اللحاف، ولا بخشخشة

الصراصير في الصوان وخزانة الكتب، وتحت الحصير وعلى جنبات الكؤوس وفي بطن الصحون الحافلة ببقايا مَرَقِ الأمس..وشايٍ ما قبلَ الأمس..

- ما تأكلينَ أيتها الصراصير الحميمة ..؟

المجدُ لك أيتها الصراصير والفئران! افعلي ما شئتِ، لكن رجاءً احذري أن تتهافتي على عقلِ ابنِ الفارض المبثوث بعناية في بطون الكتب وتأكليه! كُلِيني أنا.. أَعْرِضِي عن ابن رشد والمعري وابن الرومي والجاحظ وبودلير ودوستويفسكي وكاواباتا.. لا تقضمي أفكارَهم العذْبة أرجوك..! استأنفي نَهْشِي ببشاعة رائعة.. اقضمي أشلائي وما تبقى من رمادِ وجودي.. ها أنذا جسدٌ بلا أركان وأطلالٌ تذروها رياحُ الوقت..! وها أنتِ تمرحين على جسدي الذابل شامخةً كالديناصورات الثاملةِ بوجبةٍ لذيذة! اِقضميني أيتها الصراصير ..اقضميني أيتها الفئران الصديقة هنيئا لكِ بي.. انهشيني حتى نِهايتي..! أيتها الرطوبة كُفّي عن جدران الغرفة المتطاير، وهَلُمّي إليّ لتنخري الحبَّ ودُخانَه في أعماقي.. انتزعيني مني لعلي أتطهَّرُ من لفافة المومياء القاسية التي تسكنني!

*****

وأنا -في ذاتِ اليوم- في ظلمةِ الغرفة الباهتة يا صباح امتدَّ بصري إلى فأر مُسرِعٍ صوبَ ثُقبٍ في الجدار، صارت الغرفة أشبه بعلبة ليليّة، أو خمارة للصراصيرِ والفئرانِ تدخّنُ فيها وتلهو فيها كما يحلو لها، وأنا النادلُ الذي يطوف فيها

شاردا يوزع المشروبات على هذه المخلوقات، ويُقَدِّمُ لها السجائر، حريصاً على عدم إغضابها..وحينما هَمَمْتُ لخدمتها فجأةً إذا بِصرصور في حجمِ دينصور، يُقهقهُ ودخانُ السّيجار يهتزُّ في منخريْه وفمه، ويشير إليّ:

- هِيهْ..!أنتَ أيها المغفَّل، خُذْ، هل تريدُ سيجاراً؟
- لا أُدَخّن، وليس لديّ ثمنه.
- ..ماذا تقول قبل الآن وماذا تفعل؟
- أَسْرُدُ عنكم.
- تسرد عنا؟؟ عجيب!..اِسترحْ من السرد وهاتِ الكأس.
- سأفعلُ.. طِبْ خاطراً..
- ماذا تحكي ؟
- روايةً، أيها الصرصور..
- سَيّدُكَ الصرصور!
- أَيْ نَعَمْ، روايةً سيدي الصرصور..
- روايةُ ماذا أيها الجائع ؟! نحنُ نتّهِمُكَ بتُهمةِ السرد، بسبق الإصرار والترصد..
- ألا يحق لي أن أُمارِسَ البَوْحَ سيدي الصرصور..؟
- نحن نتّهِمُكَ بتُهمةِ البوْح.
- ألا يحقُّ لي أن أمارس الكلام؟
- نحن نتّهِمُكَ بتُهمةِ محاولةِ ممارسةِ الكلام.

- ولكن؟ سأحكي عن..
- سَنجعَلُ منكَ حكاية، يجب أن نضعَكَ في قفصٍ متصدّئ أيها المومياء، لِنَنْهَشَكَ ونلحسَ عقلكَ العاهر!
- عقلي عَاااااهِر؟؟ ..ولكن لماذا..؟
- يجب أن نشنقكَ بحبال من حرير أيها السارد الأعمى الجائع، لتموتَ على الأقل ميتة مُشَرِّفَة.
- ولكن..؟
- ولكن ماذا أيها القَذِر؟..قُلْ لي أَوّلاً: مَنْ أنْتَ؟
- أناااااا..
- مَنْ تكونُ يا أنتَ؟
- أناااااا.. جائع..ألا تفهمُ؟ هَلْ صِرْتَ مثلَ صباح لا تفهمُ؟
- إذن نحن نتهمكَ بتهمةِ الجوع، نحن القائمين على قذارتِكَ نُعلنُ للرأي العام ما يلي: أنتَ مُجرمٌ لأنكَ جائع، أو بتعبير أدقّ لأنكَ تمارسُ الجوع وتحرّضُ عقلكَ على الجوع، وتحرّضُ أعضاءَ جسمِكَ على الجوع..

تدخّلَ صرصورٌ كأنه مُحامٍ، وهو يهمُّ للدفاع عني:

- أعترض سيدي.. يجب أن تتركوا له فرصة للدفاع عن جوعه..

التفتَ إليّ:

- قُلْ لهم: ما نوعُ جوعكَ الذي يُداهمُكَ؟
- في صدر القائمة: جوعُ البطن..

- ثم..ثم ماذا؟
- جوعُ الجيب..
- ثم..ثم؟
- جوعُ العقل..
- جوعُ العقل؟ غريب! وما تفعلُ بكتبكَ التي تقرؤها؟
- أُسمّنُ بها عقلي الذي لا ينفعُنِي جوعُه، وأُفرِغُ بها جَيْبِي الذي يبتلعُنِي جُوعُه!
- نحن لم نَفهمْ شيئا! نتّهِمُكَ بأننا لم نفهم شيئا..

التفتَ إلى زميله:

- اُكْتُبْ في المحضر أننا نتهمه باستعراض عضلاته الفلسفية لِيُواري بها سَوْءَةَ جُوعِهِ المُفْتَعَل.
- ولكن..؟
- سمعنا ما يكفي، لا مجال هنا لكلمة "لكن"، هذه أدلة ناصعة ضدك، سنستعملُ قنابلنا المسيلة للدموع لتفريق أعضائك الجائعة المتظاهرة في صمت، وعليه فأنتَ منذ الآن محكوم عليكَ بضرورة الإضراب عن الطعام والاستمرار في الجوع، والصيام من طلوع البطن حتى غروبه في العظام، ويجب أن نجردكَ من كل شيء تملأ به بطنكَ وجيبكَ..

رُفعتِ الجلسة.

تصايحتِ الصراصيرُ من تحت حصيرٍ، بين مؤيد ومعارض ومصفّق :

- إن شئتَ أن نفكر في العفو عنكَ، هاتِ خمرا معتّقة.
- اِعْصِرُوا عظامَه..
- أطلقُوا سراح هذا الجائع الميّت/ الحيّ..
- لا، بل ألقوهُ في غيابات الجبّ..
- امتشّوا جَيْبَهُ المُمْتشّ أصلاً..
- اِلْحَسُوا عقلَهُ وقلبَهُ..
- اِلعقوا عينَهُ العوراء لتستريح منه ومن القراءة..
- مزّقوهُ وانهشوا كَبِدَه..
- قدّموا له نَهْداً مِنْ مَرْمَرٍ قُدَّ من صاحبته، ليذهَبَ عنه جوعُه الذي تعلمون!
- اِقطعوا عُضْوَهُ بالساطور، ليزداد جوعُهُ بطريقة أخرى غير التي عَهِدَهَا بطْنُه..
- التهِمُوا كُتُبَهُ..
- أيتها الصراصير خُذوهُ فغُلُّوه..

صرخْتُ في وجوههم-ويالَضآلتي يا صباح- معارضاً متظاهرا بالعنتريّة:

- لا تفعلوا، وإن فعلتم فأنا أهدِّدُكُم بمبيد الحشرات..

قال صرصورٌ طفل:

- تُخوّفنا بعطورنا.. أيها الجائع؟

يلتفتُ إلى سِرْبِ الصراصير، فَيُقهقِهُ بضحكة مائعة ملتوية:

- هّا..هّا..هّا..يخوّفُنا بعطورنا! أتسمعووون..؟ هاتوا لِحَشَرَةِ بنتِ الحَشَرَة عشراتٍ منْ مبيدات الحشراتِ..!

ارتطمتْ نظراتي الحائرة بفوج جديد من الصراصير يتدفقُ من تحت الباب، انبطحتُ كَجِرْوٍ على بطني، لعل صرصورا آخر مهرولا من تحت ملابسي الداخلية قد سمع كلامي، أو هو قد سمعني فعلاً، رفع قرنيْ الاستشعار الملتصقين بظهرِي كأنهما فَوْهَتَيْ دبّابة، ثم قال لي ضاحكاً وكلامُهُ يتناهى إلى سَمْعي رَخْواً:

- أيها الأستاذ الجائع طوبى لك! ما حرقَ الجائعُ خبزَه فاحرصْ على خبزك، هنيئاً لك بجوعك..هنيئا لنا بارتوائنا بك وبصداقتك، أتعلم؟ نحن نحبُّكَ لأنكَ قَذِرٌ..! يقولون يا أستاذ: "ليس في الناسِ/القنافذِ أَمْلَسٌ"، ونحن نقول: "ليس في الصراصير أَوْسَخ!" اِستمتعْ بِسُخفكَ أيها الصنم..طوبى لك..طوبى لك..أيها الجائع!
- لكنني لستُ قذرا ولا وسخاً ولا ما تقولون..أنا مُرَبّي الأجيال..
- أخطأتَ يا هذا..هذا قولُك عن نفسكَ وللناس أن تصدق أو تُكذّب..
- أنا مُرَبّي الأجيال..!
- لكن جيبَكَ كالساعة الرملية!
- أنا مُرَبّي الأجيال أقولُ لكَ..!
- هّا..هّا..هّا أنت مربّي الْكَبْدَة على صباح..
- أنا مربي الأجيال..! فلا تضحكْ من فضلك.
- يقول هو مربي الأجيال يحتاج إلى ..هّا..هّا..هّا..

* * *

آه يا صباح! هكذا أمضي سحابة ليلي مع أحبابي الصراصير في الحجرة..ينبغي أن تعرفي أني جائع .. جاااائع ..كما تقول الصراصير وكما أقول..

ها الصَّبَاحُ يتدلى من خلف أعناق العمارات والمباني الزجاجية، من خلف المدينة الوحش.. خرجتُ من حُجرتي إلى موقف الأطوبيس أقفُ وبصري إلى الأرض، قَدْ بَقِيَت في جيبي عشرة دراهم فقط، الساعةُ تمرُّ كقطيعٍ كسولٍ من الأغنام يعبرُ أرضاً فسيحة..بساطُ الرطوبة ممتد على المدينة، ورائحةُ البحر تأتي من بعيد وتنعش الصدور وتخنقها، سعارُ المدينة لم يبدأ بعد، بائع النعناع والقزبور يمرُّ سريعا على حافة الطريق فيتلاشى في الأفق، ثم يتدفق شريطٌ من الدراجات النارية محملة بالخبز تسرع للمخبزات والدكاكين فتتسلل رائحة الخبز على حين غِرة إلى أمعائي الجائعة، فَتُتَمْتِمُ شفتاي اللّمْيَاوان بالقصيدة الدرويشية "أحن إلى خبز أمي"، فَأَقِفُ شامخا في جوعي ولهاثي، يبدو يا صباح أني شَبَتُ على الجوع وشِخْتُ فيه! يبدو أني شببتُ على الجوع وشِخْ.... المهمّ كُنْ جديرا برائحة الخبز يا محمود غير المحمووووود! كُنْ مستمعا جيدا لنداء البطن..

******

كالعادة..لم أُعَمّرْ طويلاً في المدرسة الخاصة التي تعرفين يا صبّوحة، التحقتُ بعد ذلك بمعهدٍ خاص ضخمٍ لأدرّس فيه، وكان يملكُهُ رجل مقاول قد بلغَ من الخَرَفِ عتِيّاً، قد اشتغل في فرنسا منذ أمدٍ، ثم لما هَدَّتْهُ السّنون وتقاعد عاد إلى المغرب فأنشأ معهدا كبيرا وكان هو مديره والمشرف عليه..ذاتَ ذُلٍّ وهَوَانٍ وأنا

في بداية الطريق إلى ذات المعهد انفجرتْ عجلةُ الدّراجة الأمامية، فَتَمَزّقَ إطارها، فَمضيتُ كالأفعى المجروحة أَجُرُّ خُطايَ والدراجةَ في يأسٍ ومضضٍ..أووووف.. تجمّدَ الوقتُ من حولي، كنتُ كَمَنْ عضّتِ الأغلالُ ساقيْه، تلزمني ساعة وعشرون دقيقة لأصل إلى المعهد، أحسستُ بامتعاض فظيع يَلْعَقُ قلبي، استسلمتْ قدمايَ للذهاب.. ليس في جيبي غير ثُقْبٍ وخَرْقٍ فظيع تجَدّدَ هذا الصباح وأنا أتأهّبُ لتسلّق الدراجة الشمطاء، كيف سَأُوَارِي ثقبا جانبيّاً في أعلى السروال أمام المتدربين؟ لا تُجيبي.سْكْتِينَا(اصمُتي)، ولا تسأليني يا صباح: لماذا لا أُعِدُّ مثلَكِ هندامي قبل الخروج من المنزل؟ لا تُعاتبيني: لماذا لا أرى نفسي في المرآة كل صباح كالعروس، هل تعلمين: لماذا؟ لأنني ببساطة لا أملكُ في مسكني مِرْآةً..الصراصيرُ ستُخبِرُكِ بِذلك..إسْألِيها.

امتطيتُ الطريق ماشياً من حيّ المغرب العربي بأيت ملول إلى أكادير لمسافة كيلومتراتٍ ظالمة، أجرُّ الدراجة وأجرُّ ضآلتي معها، أزيزُ السيارات وهديرُ الشاحنات والحافلات وطنينُ الناس، كلُّ أولئكَ يُؤجّجون رغبةً حقيقيةً في داخلي في أن أَصْرَعَ الجوعَ وأُمسِكَهُ مِنْ قَرْنَيْهِ، وأمرّغ وجهه في التراب وأُعَفّرَهُ جيدا، وأحفِرَ ظهرَه بمعوَل مَقْتِي له، وأَقْذِفَهُ إلى وسط الطريق لِتسحقَهُ الشاحنات والناقلات بَدَلاً عني! آه لو كان الجوع رَجُلاً لقطعتُ لسانَه لِتأْكُليهِ يا صباح!

تناثرَ جسدي إربا إربا..وبيْنَا أنا غارقٌ في شرودي وغيابي مرّتْ بجانبي شاحنة عملاقة، فكادتْ تدوسُني وتدوسُ جوعي معي قبل أن أنالَ منه. مضيتُ في الطريق كالحلزون الذي كُسِرَتْ صَدَفَتُهُ، أحسستُ بالجوعِ يُمَزّقُ أحشائي وعظامي، سقطتِ العشرةُ دراهم الملعونة.. ليس في جيبي شيءٌ، لم تَذَرْ فيه المؤسسة الموقَّرَةُ التي أشتغلُ لديها شيئاً، حَلَبَتْهُ لا باركَ الله فيها.. لم أَعُدْ أقوى على حمل نفسي ولا على متابعة المسير وأنا بَعْدُ مازلتُ في قارعة الطريق، قدمايَ نَكَفّيْ بَعِيرٍ، عيناي -لا شَفَاهُمَا الله- غائرتان من شدة السهاد والسهر مع أحبتي الصراصير.. الْتَفَتُّ يميناً فَوَقَعَ بصري على سوقٍ مُغطّاة، فاتّجَهْتُ صوبها متلهفا ولاهثاً، وتركتُ الدراجة العجوز قرب عمود كهربائي، مُسْنَدَةً إلى ساقه، أَتَرَيْنَ؟ لم أَعُدْ أهتمُّ بها فَلْتُسْرَقْ لعنةُ الله عليها كما تُسْرَقُ الأبناك! لم تَعُدْ تَهُمُّنِي حتى نفسي، قد لعنتُها في سرّي هي والدراجة، فلنذهبْ معاً إلى الجحيم ولْتَهْنَأ المؤسسة التي أنا أجيرُها بِحُسْنِ بلاءها في تعذيبي، وتفنُّنها في سَحْقي وأنا الذي أقرأُ على وجهِها الشاحِبِ الذاهبِ في السماء كل صباح"جْوّعْ كَلْبَكْ يْتْبَعْكْ"!

دخلتُ إلى السوق والجوعُ يعربد في أحشائي ويعمي بصيرتي وبصري، نظرتُ إلى بائعي الخضر والفواكه والصناديقِ المبثوثةِ أمامهم، تسرّبتْ رائحة النعناع والسمك والبرتقال إلى خياشيمي فاستفزّتْ جوعي، أَبْشِرْ أيها الجوعُ الصّنديدُ بحربٍ طاحنة يقودها البرتقال! حاولتُ أنْ أَمُدَّ يدي ليملأها هؤلاء البائعون

ببرتقالة أو برتقالتيْن أو مَاطِيشَا أو مَاطِيشَتيْن[1] أوحتى قزْبورٍ أو قزْبوريْن، لكنني تذكرتُ حديثا نبويا يقول:"...خيرٌ له أن يسأل الناس أَعْطَوْهُ أو مَنَعُوه"، فامتنعتُ عن السؤال، أردتُ أن أفكّر، لكني تذكرتُ كلام أحبّتي الصراصير عن الفكر والتفكير فَلَمْ أُفَكِّرْ، وإنما مَدَدْتُ يدي على حين غفلةٍ من البائع فسرقتُ برتقالةً كانت عفنة لكنها لذيذة، تَخَيَّلِي يا صباح: وَضعتُها بين الكتب في المحفظة بسرعة مُضحِكَة، فخرجتُ من السوق مُحاذِرا إلى الخارج كَقِطّ يَهْرُبُ بقطعة لحم، فأرسلتُها إلى جوْفي لتقدّمَ لكمةً للجوع العاهر اللّعين، وتُوكِزَهُ وتقضي عليه مؤقتا.. نَهَشَتْ أسناني البرتقالةَ وسَحَقَتْهَا، وتذكّرتُ لحظتها - وَيَالَسَخَافَتِي يا صَباح ويَالَضَآلَتِي!- درساً قد قدمتُه لتلاميذ الصفّ السادس ابتدائي منذ سَنَةٍ حَوْلَ حُسْنِ الخلُق والصدق وتجنب الكذب والسرقة وضرورة طاعة الوالدين.. وها أنا أحدثُكِ عن ضرورة لا طاعة الوالدين فحسب بل طاعة البطن العمياء..!

البائس: محمود

[1] – في اللسان المغربيّ الدارج تعني الطماطم..

جواب الرسالة رقم (٣)

مُدهِش يا عزيزي محمود..مُذهِل..!

لقد قرأتُ بعينيْن حمراوينْ ما كَتَبْتَ عنكَ وعن الصراصير والجوع فَأَدْهَشَنِي، ولن أعلق طويلا..لأن لساني لن يطاوعني على ذلك..تقول لي يا محمود في كل مرة تحكي فيها ما مَرَّ: هل أذكر..؟ أنا لم أَنْسَ حتى أذكُر..ولكن أقول:

هل تعلم يا محمود أنني لم أعجبْ - في كل ما سَكَبْتَهُ من أحداث على سَمْعِي- أكثر مما عجبتُ من حديثِكَ عن قصتك مع طلبة المعهد، يوم توعَّكَ خاطرُكَ وأنتَ تدرّسُ الطلاب أنواع الشيكات والأبناك ومهارات كتابة نهج السيرة وطلبات العمل والتدريب في الشركات والمؤسسات والمقاولات، ثم احترقَ وجهُكَ بغتةً من الخجل وأنتَ تتلفَّظُ بكلام لا يربطه بالموضوع رابط..هل كنتَ غارقا في العَرَق من شدة الخجل والدهشة من نفسِك وأنتَ تقولُ ما تقول؟

- يجب أن تعلموا أن لكل بطنٍ عجفاء وجيْب جائع نهجُ سيرةٍ خاصّ بهما..؟

لكل بطن عجفاء وجيبٍ جائعٍ نهجُ سيرة خاص بهما..يا محموود؟ هل جُننتَ أم على وشك الجنون؟

*****

لا تثريبَ عليك أيها المجنون العجيب الجميل..قبل أن ينفجرَ صدرُكَ أو رأسُكَ بكَ لا بأس أن أُذكرَكَ بأن الجوع ما يزال الآن يعوي في جسدِكَ المكدودِ بك، لا تَلُمْنِي يا محمود أرجوك، لا تضحكْ مني وعليّ، فأنا لا أقوى على البكاء ولا على الضحك، أُناشدُكَ الله أرجوكَ، ربما ما أقذَرَكَ كما قُلتَ في كلامكَ السابق! ولعلكَ فأرٌ أو صرصورٌ أو أَرَضَة -كما زَعَمَتِ الصراصير- أو أي شيء يكبر في نفسِك، لكنَّكَ دوماً جائع .. جاااااائع راااائع.. وللجوع أحكامٌ..!

الوفية: صباح

الرسالة رقم (٤)

..لا ضَيْر، لن ألومَكِ ولن أضحكَ منكِ وعليكِ، نَعم يا صباح..سأحدثُكِ عما جرى لما عاودتُ المسير مرة أخرى بدراجتي إلى المعهد، فقط أعينيني على البكاء والنسيان:

يا للهول! لما خرجتُ مُجدّداً ذاتَ مَوْتٍ من جُحري من أيت ملول، اندفعتُ لاهثاً لأبلغ معهد الفندقة الخاص، والرغبةُ المشتعلة تسبقُني في المسير، لم أكنْ مهيئا هذه المرة كما يجب في هندامي وتسريحة شعري، الرياحُ تصفعني من كل جانب، فأتوغلُ فيها بدراجتي كما لو كنتُ مندفعاً في يمٍّ هائج.

- تأخراتُكَ قد كثُرتْ يا أستاذ محمود..!

يقول لي الجنرال دائما.. عفواً أقصدُ المدير، وهو كعمود المعصرة ينتظرني أمام باب المؤسسة.قَرَعَتْ كلمتُه ذهني، "تأخراتُك؟" طّاااآنْ.. فضغطتُ على المقود بسرعة، ورائحةُ البحر تحملُها الرياح إلى صدري بردا وسلاما فتضمّدُ جروحَه، فأضغطُ على المقود كقطٍّ يتأهب للشجار، ولو استطعتُ أن أطير بدراجتي العجوز لَفَعَلْتُ لعلي لا أجدُ المديرَ هذه المرة ينتظر شبَحي.خرجتُ- أقولُ لكِ- كدأبي من جُحري- عفواً.. أقصدُ- من بيتي أشقُّ الطريق هذه المرة

بدراجة نارية، أرسلَها أبي لأتنقّل بها في المدينة كالنحلة النشوى برحيق الأزهار، هذه الدراجة عمّرتْ طويلا يعود وجودُها إلى استقلال المغرب، ظفر بها أبي من شخص كان أجيرا في حقول المستعمرين الفرنسيّين، بقرية مطوية في عراء تَمْكْرُوتْ بالقرب من زاكورة، هيكلُها الصدئ ما يزال فَرَساً قوية، قلبُها يهدر كالطاحونة، بَيْدَ أن المسكينة الحبيبة أحياناً تُحْمِحِمُ كحصان جريح، وتسعل في كل مرة كامرأة مُسِنَّة كلما بالغتُ في امتطائها.آه..ما أشدّ قسوتي عليها وعليّ..!

مضيتُ مُسرعاً ومتعثّراً..وَجْهُ السماء -يا صباح- مكفهرٌّ وغائمٌ بسحب دكناء كصوفٍ قاتم، قامتْ قيامة السماء، أرْعدَ الرعدُ وأبرقَ البرقُ، وذُعرَتِ الطيور على عباءة السماء، أمطرَ المطر فتفرق الناس على الأرض في الطرقات كالأرانب الخائفة، وما إن بلغتُ منتصف الطريق إلى المعهد حتى توقفَ قلبُ الدراجة عن الخفقان، وتوقفتْ أغنية "يَا تَرَى يَا وَحِشْنِي بِتْفَكّرْ فِي مِينْ" في أذني وعلى لساني، حتى لَكأنّ أم كلثوم اختنقتْ بانتهاء البطاريات..الدراجةُ في حاجة إلى الوَقود ليُذهبَ عن شرايينها الاختناق. لا.الدراجةُ في الحقيقة ليستْ في حاجة إلى الوَقود، بل هي في حاجة إلى بُصاقي وتْفُو وصفعاتي التّترى.اللعنة! لماذا توقّفْتِ أيتها العجوز الخرقاء الورهاء الشمطاء؟ سأتأخرُ عن موعد الدرس، الطلبةُ والتلاميذ المتدربون في المعهد سينتظرون الفراغ.لا شكّ سيمرحون ويفرحون بغيابِي كالأطفال يمرحون بهدايا العيد!

نحّيتُ الدراجة إلى كتفِ العمودِ الكهربائي الذي شهِدَ جُوعِي الأول، ربطتُها كالدابة بسلسلة صدِئة، وأحكمتُ إقفالَها بقُفل متصدئ ولم أعبأْ بمصيرها، وضعتُ الكاسيط وجهازَ التسجيل في جيْبِي حتى لَيَبْدُو فيه وكأنه خُبْزٌ مَسْرُوقٌ، ثم تابعتُ المسير.. تَرَيّثْتُ هنيهةً مُرْغَماً وخناجرُ السعال والزكام تُقطّعُ رئتيّ وتذبحهما وتمزقهما، وضعتُ محفظتي و وزرتي ودفتر النصوص تحت ملابسي الداخلية لاتقاء المطر، ويداي على خاصرتي من أسفلها تحفظها من السقوط على الأرض، أحسستُ بقشعريرة تُكهربُ جسمي النحيف قد أحدثَتْهَا أسلاكُ الدفتر، ثم استسلمتُ لعطاسٍ حادّ يلهب صدري، وسُعالٍ أسود متواصلٍ كاد يُخرجُ قلبي من فمي لأُمْسِكَهُ بيديّ الشبيهتيْن بخُفّيْ بعير.. انتظرتُ على الرصيف لعل أحدَ المارّين من السائقين يرقُّ لحالي ويتوقف ليوصلني إلى المعهد، بيد أن جميع السيارات كانت تمرقُ على الطريق كالسّهم، ولا تنتظر حتى الأضواء الثلاثة.

فليكنْ إذن مسيرُكَ يا محمود غير المحمود صرخة في واد، فليكنْ إذن نفخةً في رمادٍ بلّلَهُ المطر، أو فلتكنْ أنتَ ذاتَكَ رماداً بلّله المطر، اِمْضِ إذن أيها الرمادُ المبلَّلُ، أو أقول أيها الأستاذ المبلل بالأوهام في الطريق، لعل أحدَهُمْ يأخذُكَ على ظهر شاحنته، أو سيارته الفارهة أو دراجته، أو أقول ارتقبْ شبحاً يشفق عليكَ بطائرةٍ وهمية، ليأخذكَ في السماء ويقذفكَ مثل جرْوٍ مُزعِجٍ في بحرٍ لجيّ أو في مكان سحيق، فتستريح إلى الأبد!

أثناء انتظاري المحموم لِأحدهم، كان الهواءُ باردا ومخنوقا بسياط المطر- الشبيهة بألعاب نارية- وهي تجلد ظهْرَ الإسفلت بلا هوادة، ألا تهدأُ أيها المطر؟ أم أنك مثل البشَر لا تهدأ..؟ استمرَّ هطولُ الأمطار العنيف والرياحُ تصفعُها من كل جانب، والانتظارُ يصفعني، وبيْنَا أنا أتأمل خيوط المطر التّتْرى- وعيناي غائمتان بماء المطر المنسكب على زجاج النظارتيْن الذي يحجب عني منظر الطريق، وشَعري مبللٌ وكُلّي غارقٌ في الماء وربما قلبي السخيف- لاحتْ دراجةٌ برونزيّة لامعة من بعيد، وسائقُها يهتزّ من فوقها مثل فارس غاضب، تنساب بين السيارات والشاحنات هنا وهناك كالأفعى، ولا تعرف قانونا للسير ولا الأضواء الثلاثة، أَقْبِلي أيتها الطائشة المتهورة الحبيبة، خُذيني أيتها الدراجة من نفسي لأصل في الوقت المناسب حتى لا يَسْعَدَ الطلبة والتلاميذ المتدربون بغيابي ولا يفرحوا به، ولا ينعموا خلف بناية المعهد بين الأشجار الشوكية -بقضاء وَقْتٍ عَذْبٍ في القُبُلاَتِ العميقة الملتهبة، ودبيبِ الأنامل على الظهور الملساء الناعمة، مع فتيات بعضهن مِسمارِيَات الأجساد، وأُخَرُ كالبقرات السّمان، طازجات النهود نافرات الأرداف، متفتّقاتِ السيقان والصدور ويافعاتِ الأحلام- على حساب وقتي.أنا على كل حال، لا وقتَ لي في الوقت، ولا وقت عندي، للحب/الصاروخ/ الشاحب /المسكين/الجميل..

ثُمّ..ثُمّ لماذا أحكي لكِ هذا كله؟ ما دخلي أنا في ما تفعله الفتياتُ وغيرُ البقرات؟ وما دخْلي في طزاجتهن وطراوتهن؟ اسْكُتْ واهْضُرْ عْلَى كْرْشْكْ

الْعَامْرة بْالْخْوَا (اُصْمُتْ وتحدّثْ عن بَطنكَ المليئة بالفراغ)، لعنة الله يا صباح على الجوع وعلى قلمي الثرثار الذي يكتب ما تقرئين..!

****

أشرتُ إلى السائق مُلوّحاً في لهفة ليتوقفَ ولسانُ لَهْفَتِي يقول: "يا ليته يرقُّ لحالي فيتوقف!".توقفَ هذا الشاب ليردفني على دراجته، ويالَحَظّي ويالَسعادتي يا شيماء! فقد تمسكتُ بثياب الرجل المبلّلة في أعلى ظهره، وأخذتُ مكاني في المقعد الخلفيّ للدراجة، متشبثاً بثيابه كطفلة فَرِحة مسرورة بدميتها الضائعة التي عثرتْ عليها بعد بحثٍ طويل..مرّ الشابُ سريعا وسط الطريق متخطيا كل السيارات والحافلات والشاحنات، والمطرُ الغزير المسكون بالبرد الشديد يغزوان جسدي وقلبي..لم أعبأ بهذا، قد جاريتُه في تهوره، وظللنا نصيح وسط الطريق ونغني، محدثيْن ضجة وجوقة أمام ذهول السائقين والمارين،فَلْتَمْضِ إذن في سُخْفِكَ يا محمود، لا ضير في ذلك، أنت أصلا سخيف، أو فَلْتَقُلْ أنتَ خرقةٌ مبللةٌ بالحاجة والمذلة، تتمسح بها المؤسسات والمدارس والمعاهد الخاصة كيفما شاءت، اِحرقْ حنجرتكَ بالصراخ والغناء، لعل أحزانكَ الهائجة تندلع منها لتتنفّس وتعتق نفسها ولو للحظةٍ واحدة، انعقْ أيها/أيتها الرحى التي تطحَنُها أحزانُها، اِمضِ في صراخِكَ ولَغَطِكَ وغنائكَ، تالله إنك لفي ضلالك القديم أيها الإنسان الحجري القديم! قَهْقِهْ كما يحلو لذاتِكَ المشروخة بالأوهام والانتظارت، فاللحظةَ لو شئتَ أَشْخَصْنَاكَ إلى الجنون، ليحتضنكَ وتخلَّصَ من ذُلّكَ الغريب أمام المؤسسات والطلبة والتلاميذ

والـمُدَرَاء،أَلَمْ أَقُلْ لكَ..؟ نَعَمْ، قُلْتَ.ولكن ما ينفعُ القولُ إذا كان لا يطحن قمحاً؟ أنتَ يلزمُكَ قولٌ ثقيلٌ ليطهّرَ عقلكَ الرّخو الميّت.اِمْضِ أَمَامَكَ ولا تنبسْ..هيّا أيها الكلب..!

ظَلِلْنَا نرفعُ أصواتنا انتشاءً بحركات هذه الدراجة التي تخيط الطريق كإبرة رشيقة، أدارَ السائقُ مقود الدراجة إلى يمين الطريق أمام المقهى الأدبي "أفلاطون" ، فقال لي وهو يتأهب للانعطاف في طريق آخر:

- يمكنكَ النزول، سَأَمُرُّ من هنا..
- شكرا لكَ، بارك الله فيك.

******

آه يا صباح! اليأسُ الأعمى لا يستطيع فِكاكاً مني، ماذا أفعلُ وللجوع أحكاااآم..طيّبْ..سأواصلُ كلامي: لَمّا هَمَمْتُ أن أتابع الْمسير....

جواب الرسالة رقم (٤)

عزيزي محمود..

حسناً فعلتَ حين لم تكمل..جيّد..تَوَقَّفْ.تَوَقَّفْ..أعرفُ أنّ اليأسَ الأعمى لا يستطيعُ فِكاكاً منكَ، وأعرفُ كذلك أنّ للجوع أحكام..لكن لا داعي لِتُواصلْ كلامَكَ ولا لِتُتَابِعْ يا محمود..أنا أعرفُ البقيّة:

..دَخَلْتَ حينها إلى المعهد لاهثاً مُحْمِماً مذبوحَ الرّئتيْن، وقد التصَقَتْ ملابسُكَ كلُّها بجسدك كَمُومْيَاءٍ مُحَنّطَة، تخطَّيْتَ قاعة الفندق النموذجي والمطبخ المجهّز بآلات عملاقة، وعلى يمينكَ أسفل الدرج قاعةٌ للمحاضرات في السياحة والفندقة، ثم على الناحية الأخرى محرف لصناعة الحلويات والفطائر والخبز، ثم تِهْتَ في دهليز طويل وبارد تنبعث على جنباته في قاعات التداريب رائحةُ الحلويات والبيض المقليّ، تُداعبُ خياشيمكَ وتهيّج بطنكَ الجدباء وتُجْهِزُ على جوعك، توقّفْتَ هنيهة كأنكَ نسيتَ شيئا، ثم طلبتَ من أحد المتدربين في محرفٍ جانبيّ أن يمدّكَ بقطعة حلوى متذرعا باختبار حنكته في الطهي، ملأتَ بها وجنتيْ الضفدع/أقصدُ وَجْنَتَيْكَ، ثم اِلتهمْتَها في خفّة رهيبة، ثم توغّلْتَ رأساً - دون أن تعتذرَ للإدارة عن تأخركَ- إلى قاعة الدرس مكتوب على لَوْحِهَا الزجاجيّ "قاعة التواصل"، عاد المتدربون إلى القاعة كقطيع من الشّيَاه المنهَكَة،

يجرّون كَسَلَهُمْ بين سَاخطٍ ولَعّانٍ ومتذمّر، وبعضُهم يميلُ على أُذنِ بعضٍ، ويتهامسون:

- أستاذُ النّحس..!
- تْفُو..
- لا أدري وَلَيْتَنِي أدري لماذا نُتعِبُ أنفسَنا في دروسٍ جوفاء مثل هذا الأستاذ الأجوف..؟
- مادّتُه لا أهمية لها ما دامتِ الإدارةُ نفسُها لا تتواصلُ معنا.
- هو ذاتُه لا أهمية له!
- تمنيتُ لو داسَتْهُ سيارة قبل مجيئه اللحظة..!
- يكون رائعاً حينما يغيبُ وجهُه عنا..!
- ابن الْ.... أَفْسَدَ عليّ موعدا لذيذا مع كَرَزَةٍ طريّةِ الرِّدفيْن..لَمْ يَتْرُكْنَا نَهْنَأُ بلحظةِ غيابِه..
- تريد أن ...مها تحتَ هذا المطر الغاضب؟؟
- وتحتَ الشمس المُحْرِقَة وفي الصقيع وسيبيريا..هذا لا يهم..هذا الأستاذ لا يفهمُ ما معنى أن تلتهم النُّهُودَ المَرْمَرِيّة والأرداف الطازجة، ..تْفُو..!
- قِطٌّ أسود!
- دُمْيَة!..

- لاَ. بَلْ لُعبة!

- تْفُوووووو.. !

حينما مَثَلْتَ أمام السبورة كدجاجةٍ مبللة بماءِ الوَحَل، انفجرَ الطلبةُ والتلاميذُ المتدرّبون بالضحك من هندامِكَ البَشِع أيها البَشِعُ الجميل، وضجّتْ قاعةُ الدرس بالنكات، لبسْتَ الوزرةَ البيضاء بسرعة لا تخلو من ارتباك، فغطّتْ ما يضحكون منه، نَشَبَتْ هَمْهَمَاتٌ في القاعة.قَرَعْتَ السبورة والمكتب ليهدؤوا، حَمْلَقْتَ مُستطلِعاً فيهم وفي بدلاتهم الزرقاء الأنيقة، حَدّقْتَ فِيكَ، وَجَدْتَكَ ضئيلا، رأيتَكَ مُلتهبَ الفؤاد وكأن سِهاماً من نار تخترقُه، وبعد زفيرٍ رهيب سَالَتْ كلماتُكَ رخوةً على فَمِكَ كطائرةٍ تهبطُ أخيراً في مطار رديء الإسفلت:

- مَرْ..مَرْ..مَرحباً أيها الأعزاااااء، سأضطرُّ إلى تكرار نفس السمفونية: أعتذرُ بشدّةٍ وبفظاعةٍ عن التأخر بسبب المطر ووسائل النقل وبُعد الشقة..

- لا بأس عليك يا أستاذ..

قال المتدرّبُ الذي ضَجِرَ من طَلْعَتِكَ - وتحدّثَ عن المرمر والطزاجة- بخُبثٍ:

- لِفَرْطِ حبّنا لكَ يا أستاذ عُدنا لملاقاتك.

- أشكرُكُم جميعا..حبي لكم ولرغبتكم المشتعلة بالتعلم لا يسعُ قلبي المليء بكم..شكرا ومعذرة مرة أخرى.

تَصَخَّرَ الوقتُ كدأبِهِ وأنتَ تُحَمْلِقُ في المتدرّبين وكأنكَ تَبحثُ عما يسخرون منه في عيونهم شبه المغمضة بالقيلولة، كان عليكَ أن تلتقطَ أنفاسكَ قبل أن تبدأ الدرس.

لاَطَ بكَ الكمَدُ والسأمُ والضجر والشعورُ بالحرَج،كُنتَ تتحدثُ في موضوعِ:"العولمة وحوار الثقافات" وأنتَ ملسوعٌ بتعبٍ رهيب، وبالنومِ يَخيطُ جُفونَكَ، تُوزّعُ النظرات على المتدرّبين ولسانُكَ يتدفّقُ منه الكلام نافراً حول الموضوع، فجأةً رَسَا بَصَرُكَ على طالبةٍ كَاعِب، تُحرّكُ رِجليْها ذات اليمين وذات الشمال وكأنها طفلةٌ على أرجوحة، يذهبان ويجيئان لِيُهيِّجَا كل جُسَيْمٍ في جسمِكَ، لاسيما وأنها عارية الساقيْن والمِيني- تنُّورَة لم تُفلحْ في حجبهما عن الثور الكامن في باطن كل طالب متدرب تضمُّه تلكَ القاعة.

- في ما تُحدّقُ يا أستاذ؟

ارتطمَ سؤالُها بدهشتكَ الباذخة من الساقيْن الباذختيْن، فقلتَ هارباً من السؤال ببصركَ الأعور:

- أ..أ..أأأأ..أنا؟؟ فيمَ أحدق؟؟ أحدّقُ طَبْعاً في السُّحب الرمادية خلف زجاج النافذة، وقد راعني أنها تُخبّئُ في رَحِمِهَا رعوداً مُدوّية!

قُلْتَ ما قُلْتَ وأنتَ مرتبكٌ ومُتلعثِم، سَحَبْتَ بصرَكَ يا محمود المحموم بلباقةٍ من فخذيْها الأَسِيلَيْنِ، والثورُ يغلي والبردُ في أوصالِكَ استحالَ فُرْناً، ولُعابُ الثورِ قد استحالَ شلاّلاً، والثقافاتُ لا حوار لها، والأستاذُ لا حول له ولا قوة قد

سقطتْ منه نظريات التربية والتعليم والسيكولوجيا والبيداغوجيا مُرغماً ومقهوراً، ثم أطلقتَ العنان لفمِكَ يتشدّق ويتفيهقُ، ويتحدثُ عن صمويل هينتنغتون وعن الحروب الصليبية القديمة والجديدة، وعن موضة حقوق الإنسان الأوربي والعربي وحقوق الكلاب والفئران والمثليّين في لندن وأمريكا والغرب والعالم، وعن كوننا أصبحنا بين فكّيْ تمساح العولمة، وأن أخطبوطها متوغّلٌ في جسد الاقتصاد والثقافة، وعلاقة شمال-جنوب، والتبادل الحرّ والرأسمال ووو..

نَطّتِ الطالبةُ من غيابِها وقالتْ مندهشة:

- ولكن يا أستاذ ما علاقة حوار الحضارات والثقافات بالفندقة والسياحة؟
- سؤال عظيم وباذخ!

دَسَسْتَ عَيْنَيْكَ البَاذِخَتَيْن سَهْواً وقسراً في فجِّ صدرِها النافر، إنها تتعمّدُ إثارتَكَ وزملاءَها، إنها تتبالَهُ وتتغابى بهذه الحركات لكنكَ كُنتَ لا تَرى شيئاً..تَراها لكنكَ لا تَراها على الحقيقة، ولا تَرى في كل مكان غير مَوْلاكَ الخبز والرغيف وهو كَجَبَلٍ تراكمتْ طبقاتُه، وتَحْفِرُ فيه من أعلاااااه حتى أسفل ساقيْها عفواً أقصد ..أعني حتى أسفل سفح الجبل، ذُقِ الخبزَ يا..ذُقِ الخبزَ يا جائع، إنك أنتَ العزيز الحكيم..! أعرفُ يا محمود أنكَ لا تعرف، وتَرَى بعينين لا تَريان، ولكن مَنْ ذا يَجعلُ هذه الطالبة المسكينة تَفهمُ أنها لم تُفلحْ في اصطياد ثورِكَ الجائع، وهل أنتَ تملكُ ثورا في الأصل؟ أعني.. أتعلمُ يا محمود؟

آه..! ربما كادَ بصرُكَ يرسو على سفينة اللذة الموبوءة، وكِدْتَ تُبحِرُ في ما تَرَى، وكِدْتَ تَحْرُثُ أرضَها أقصدُ/أعني جسمَها الرخاميّ/المَرْمَرِيَّ الفَوَّار.. كِدْتَ تغوصُ في اللحظة الزئبقية لاسيما وأنّ جسدَها الفائر أنذاك يحتاجُ إلى رُواء..أنا أنثى وأعرفُ كَيْدَ بني جنسي..أووه.. ! كانتْ تنتظرُ أن تُحرّضَ عليها ثَوْرَكَ ولكن لا يهمّ، أنتَ أصلاً مهما دَسَسْتَ بَصَرَكَ في أي أنثى ولو كانتْ كما ولدتْها أمها فإنكَ -أيها الصخر- لن تذوب وإنما تصير ثلجا ذائباً، متى؟ فقط كلما أَمْعَنَتْ يدُ القدر في تهشيم الجوع الذي يحومُ حولكَ كفراشة مَرِحة.. هل أقول: إن الله قد نفخَ في داخلكَ شيئا يجعلُكَ تستقر استقرار الطود العظيم حيالَ صبيّةٍ تتحسسُ أنوثتَها على حساب رجولتكَ، وتتوقُ لمن يقطفُ صدرَها الناهدَ الْمُتَّقِدَ، لِتنتصِرَ لأنوثتِها وكبريائِها حينما تَخْلُدُ إلى زميلاتها وتؤكد لهنّ أن كمينَها كان مُحْكَماً، وقد استطاعتْ أن تلقي فيه أستاذَ التواصل..؟؟ ربما قُلْتَ لها وقتَها يا محمود: "لقد تَغَاضَيْتُ عن فخذيْكِ المُتّقِدَيْنِ وصدركِ المحموم أيتها الطفلة الجائعة.. مُوتي بغيظِكِ! الحمدُ لله الذي قَلَّمَ ثورَ الفُحولة في صلبي..لَكِ أن تَعْلَبِي يا صَغِيرَتِي ويا مُرَاهِقَتِي المُتّقِدَةُ أنني مَخْصِيُّ العقل والروح والثور..!"

- نَعَمْ.. علاقةُ حوار الحضارات بالثور-عفواً- بالفندقة والسياحة أنكم حينما تعملون في فنادق البلاد ستستقبلون أفواجاً هائلة من السياح، هؤلاء السياح وُلِدوا في بلدان راقية لها حضارات وثقافات مختلفة عنا، فَيَلْزَمُكُمْ أن تحسنوا استقبالهم، وكذا التواصل معهم وتحترموا ثقافاتهم،

وتخفضوا لهم جناح التسامح..لأننا كما تعلمون أصبحنا في كنف قريةٍ صغيرة، وهذا يفرض علينا ما ذكرتُهُ لكم..هل فهمتِ الآن؟

- نعم، فهمتُ يا أستاذ.
- هل من سؤال آخر غيرِ هذا..؟

******

آه يا محمود..! هل كُنْتَ وَغْداً رهيباً حينما كُنتَ تَتَلَصَّصُ على فتحة البدلة التي كانت ترتديها تلك الطالبة المتدربة في شعبة الاستقبال، لما كَشَفَتْ عَمْداً عن ساقيْها ونهديْها من أعلى صدرها، وظللتَ أيها المراهقُ غائباً في ما تَرَى، لولا أن أخرجَكَ من ذهولِكَ سؤالٌ صاعق من المتدربة نفسها؟ عَمَّ سَأَلَتْكَ يا حُفنة اللحم القَذِرَة؟ ماذا قالتْ لكَ حتى صَرَفْتَ بصرَكَ الزائغ الفاسق؟؟ هل ارتطمتْ شفتاكَ بخدّها المرمريّ..؟ قُلْ أيها المراهق فقدْ سَحَقْتَ كبريائي..لن تقول..لن تُجيب..أنا أعرف..

المُخلِصَة: صباح

في القطار- ما بين سطات والدار البيضاء

ارتفع صخبٌ مُزعج داخل مقصورة القطار، خفتُ أن تكون السيدةُ صاحبةُ الحقيبة السوداء قد عادتْ ولمحتني وأنا أتصفح الرسائل من خلف الباب الزجاجي للمقصورة، توقفَ قلبي عن النبض حتى شعرتُ به سألفظُه خارج فمي، فكرتُ في أن أغيّر المكان، لكن القطار كان ضاجّاً بالركاب، ولا موطئ قدم فيه لأحد، الفوجُ الذي صعد من سطات ملأ جنبات المقصورة ودهليز القطار عن بكرة أبيه..إذن اِجْلِسْ حيثُ أنتَ يا موحى! أَجَلْ، جلستُ حيثُ أنا، رميتُ بصري خارج النافذة، هَالَنِي ما رأيتُ..بساطٌ أخضر ومرتفعاتٌ خضراء تمتد على مدّ البصر وعلى مساحات وارفة، وهي تنساب وتطلع وتهبط مع كل حركة وانعطاف للقطار ياااااه..!

- أُنظُري هنااآلك.."وَاكْلِيمْ" كأنها قريةٌ مضطجعة تُرسل فستانَها الأخضر بالنخيل على ساقها البِلّوريّ..إنها عروسٌ تحميها الجبال التي تحرسُها..أما هنااآلك؛ حيث شريطٌ أخضر من شجر السرو ف"توزاكت"؛ درّةٌ من دُرَرِ تنغير، وعلى الجانب الآخر على اليسار "إِعْدْوَان" و"تَجْمَّاسْت"، وفي تلك النقطة؛ "أيت بَرَّى"، وهناك؛ "بوكافر" و"تيشكا" ثم قلبُ "تنغير"..وهذا البساط الأخضر هناك كله هو تنغير الحالمة:

ماسّةٌ تحرسها الجبال وترقبها الثلوج من فوق رؤوسها لينزلقَ النورُ متدحرجاً إلى حقولها وصوامعها وقصباتها وعلى..قلبيْنا المتعبيْن..

هذا ما قلتُه لأختي ونحن نُمتّعُ أبصارَنا من فوق جبال مضايق تودغى..ذَكَّرَنِي هذا البساط الأخضر من خلف نافذة القطار بها، لقد أَصَرَّتْ أختي يومها على أن نصعد إلى أعلى، فمررنا بفجاج من خلف شعاب الجبال، ثم جلسنا كعصفوريْن وديعيْن..لا شيء هنا في هذه السماء الأرضية سوى الصمت..لا شيء هنا من فوق الجبل سوى الله يتجلى لنا في ألواح تنغير في هذا الفضاء اللانهائي، ومن تحتنا أرى خمائل بيضاء وكأنها تمرح، وقصورا وقصبات طينية تنبعث منها زغاريد نساء من تاريخ تنغير..ووديان تنتصب واقفة وراقصة إلى أن يبلغ عنقها إلى الجبل الذي نجلس على صفائحه..وجبال تتحرك وتسير في رقصة موحدة..ونسيم لطيف يرش عبق البرسيم والسنابل على رؤوس المارين..وسماء زرقاء كبحر مقلوب..ووووو..صمتاً لأسمع صوت قلبي وهو ينبض إلى جانبي بعد أن نزعتُه ووضعتُه على الصفيحة الصخرية التي تجلس عليها أختي "كْلُّو"، لم أعد أشعر بالألم رغم بقع الدم على صدري وعلى الصخرة..لقد فرشتُ لأختي قلبي لتجلس عليه لأنه أفضل سجّاد تفترشه، وحين نغادر ونعود إلى "أسفالو" تنفضه تماما كما تنفض السجّاد، ثم تضعه وتعيده إلى مكانه من جسدي كما تعيد أوتارا ممزقة إلى موضعها من الكمان أو العود أو الوترة..

دخلتْ فتاةٌ في العشرين إلى مقصورة القطار فقطعت عليّ شرودي، قالت وعيناها في كرسي بجانبي غادره رجل مُسنّ قبل لحظة:

- هذا المقعد شاغر أم..؟
- إنه مليء بأوتار الحب والكمان والوترة..

قلتُ لها وعقلي ما زال لم يبرد، معلقا وعالقاً في جبل تنغير والقلبِ الذي افترشَتْهُ أختي "كْلُّو".اضطربتِ الفتاةُ، تَوَرَّدَ خَدَّاهَا خجلا وهي متكئة على عمود مدخل المقصورة، قالت تداري الحرج:

- هههه..أنت رومانسي على ما يبدو..!

قلتُ باسماً:

- يمكنُكِ الجلوس، لا ضير.. العجوزُ ربما ذهب إلى دورة المياه، إذا عاد عليكِ أن تتحملي شكواه وعتابه..

إنها فتاة تبدو مثل فتاة محمود في المعهد التي غارت منها صباح، وأنا أيضا كما قالت صباح قد بدأتُ أتَلَصَّصُ لا على فتحة بذلتها من أعلى صدرها بل من خاصرتها المكتنزة التي يتجمع فيها حوض لحميٌّ يكشفُ طزاجتَهُ كُولُونٌ لامعٌ يصدُّ أيّ مقاومةٍ شديدة لغضِّ الطَّرْف والتواري، أنا صوفيّ لكنني لم أقوَ على صدّ هذا الجبل، ومقاومة هذه الأنوثة الفائرة؛ هل أقول لأبرر فعلي إنني على الحقيقة لا أثقبُ ملتقى فخذيها وصدرَها بِعَيْنَيَّ لأرى بَهَاءَ الفتاة الكاعب، وإنما كما علمتنا كتبُ مولانا ابن عربي إنني أرى الله فيها، دينُ الحب..دينُ الحب يا موحى! هذا

ما تقرؤه في "ترجمان الأشواق"..آه.. كل شيء فيها ينفثُ حِمَماً كالبركان؛ الصدرُ الناهدُ الشقيُّ الغافلُ الناعسُ تحت حاملة الصدر، والشَّعرُ الذهبي المرسَل خلف كتفيها كذيْلِ فَرَسٍ مُدَلَّلَةٍ، والأنامل البضة المشربة بحمرة والتي تمسك الهاتف الذكي، وكولون الْجِينْز وملتقى ساقيْها وخاصرتها عند أعلى نهديها الشبيه بالجزَرِ، على كل حال، سأسدل بصري إنها ليست مثل أختي كْلُّو..!

التفتَتْ نحوي وهي تفرقع العلكة في فمها، ثم بلا مناسبة قالت لي:

- أنتَ من سطات؟
- لا، من تنغير..
- لا أعرفها..
- لا تعرفينها؟ حوريةُ الجنوبِ الشرقي..هناك حوريةٌ في البحر، وأخرى في البر..إنها هي.تنغير..
- لم أفهم ..!
- ولماذا ستفهمين؟ عليك أن تزوري مضايق تودغى لأعرّفكِ بأختي كْلُّو، إنها جميلة مثلك..
- وهل أنا جميلةٌ..؟
- وقبيحةٌ إن رفضتِ دعوتي..
- قبيحة؟؟
- أَيْ نَعَمْ إن رفضتِ الذي قلتُ لكِ..

- قُلْتَ: جميلة، ما الذي أعجبكَ في جمالي؟
- جَمَالُ يدِ الله وهي ترسم هذه اللوحة الجالسة بقربي الآن..!
- يد الله..؟ اللوحة..؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..لم أفهم..!
- وكذلك لم يُفْهَمْ مولانا ابنُ عربي لما قال:"ربكم الذي تعبدون تحت قدمي"، فقتلوه..إنهم الدهماء..السُّوقة..آفةُ كل عصر..!
- عجيب..لم أفهم..!
- ولماذا ستفهمين ما لا يُفهم..؟ يعني يدُ الله وهي تتغلغلُ فيكِ لإبداعك وصنعكِ ماسّةً ناصعة لها وجه ويدان وساقيْن وفمٌ يستطيع الكلام والسؤال والصعق بالنظر، والخفض والرفع..
- لم أفهم..!
- ألمْ أَقُلْ لكِ؟ هاه..كما قلتُ لك، لا داعي للفهم، هي أمورٌ فوق الحواس، عليكِ أن تلغي عقلك لتدركي ما أقول..هذا لا يُسمح أن يتتبعه ويسمعه من كان (١٢-)..هههههه..
- إنكَ تتكلم كلاما غريبا ولكن لا بأس..هل أنتَ مسافر إلى الرباط؟
- ستكون في طريقي، ولكنني مسافر إلى طنجة..
- طنجة؟؟ عروس الشمال..؟؟
- أهكذا ينعتونها؟ عروس الشمال؟؟

- بلى..ألا تعرف ذلك؟

- لا.لأني أزورها لأول مرة..

عجبتُ كثيرا لهذا الوصف..لأول مرة أسمع هذا، ولأول مرة أجد لذة في طعم السذاجة..طنجة: عروس الشمال؟؟ العروس تعني القفطان والتكشيطة والمزامير والعمّارية التي ترفعها الأكتاف الأربعة ووو..طنجة: عروس الشمال..؟؟ وصفٌ جميل! إذن إنْ سألني أحد عن اسمي سأقول له: اسمي موحى من تنغيرَ حوريةِ الجنوب الشرقي، وإن سألني عن السفر إلى طنجة فسأقول..

- ولماذا ستسافرُ إلى طنجة؟

قالت الفتاة والعلكةُ كالمنطاد في فمها.

- سأسافر إلى عروسِ الشمال لألتقي عروسَ عروسِ الشمال هناك..

- مَنْ ..؟

- إنها أختي كُلُّو..

- هل ستحضُرُ زواجَها؟

- لا، وإنما ذاهبٌ الآن لزيارتها، إنها أختي من جهة الأب..أمرٌ عجيب والله..

- ما هو..؟

- موحى يخرج من حوريةِ الجنوبِ الشرقي ليلاقي عروسَ عروسِ الشمال..!؟
- هههههه..لم تسألني عن مهنتي!
- ما مهنتكِ؟
- طالبة في معهد الفندقة والسياحة ..
- ياآآه..مثلَ فتاة محمود التي دَرَّسَهَا في معهد الفندقة والسياحة الخاص بأكادير..؟؟
- لم أفهمْ..
- كما قلتُ لكِ، لن تفهمي، ولماذا ستفهمين..؟؟

هي لن تفهمَ أبدا..فتاةٌ كارْيانيّةٌ مغرورة !! فقيرةٌ تتظاهر ببورجوازية لا تليق بها..سأترك حديثَها، سأعود إلى الحقيبة.. إلى الرسائل، إلى الرسالة رقم (٥)..

الرسالة رقم (٥)

ماذا عساها أن تقول يا صباح؟

قالت:"هل أنت جائع يا أستاذ..؟" فقلتُ لها:" لكنكِ تبعثينَ الجوعَ في كل عينٍ غافلة."هذا كلُّ ما في الأمر..جِسمُها الفائر والمتهوّر قد قَصرَ بِهَا عن إدراك ما تتأمّلُهُ وتريدُه فِيَّ وقتئذٍ...على كل حال أنا غبيٌّ أو صَبِيٌّ اختاري ما شئتِ لي يا صباح، وهذا لا يهم الآن، المهم يا صباح أني:

لَمّا هبطَ الليلُ في ذلك اليوم، وبعدَ أن خرجتُ من المعهد، عصَفتِ الدهشةُ بي وأنا أتأملُ مَا حولي، وأتأملُ حصّةَ الغد في مكان آخر..طلعَ فجرُ الغد، رنّ المنبه فأخذني من كابوس إلى كابوس، لَمْ أَقْوَ على النهوض لأني مُتعَبٌ تعباً فظيعاً، لكني أدركتُ الأوطوبيس في الوقت المناسب، خشيتُ أن يلفظَنِي الأوطوبيس من جوفه عند المعهد الخاص الآخر قبل وقتِ العمل- وأنا مثلَ فِيلٍ في صورةِ إنسان، قد أَثْقَلَتْهُ نفسُه- ماذا أيها السائق؟ اِمْضِ كقنبلةٍ فَقَدَتْ صَوَابَهَا..اِمْضِ ..تَلاَشَ في الطريق حتى لا أرى أحداً في طريقي ولا حتى نفسي..أغمضتُ عينيّ كطفلٍ لا يريد أن يفيق من حُلْمٍ عَذْبٍ، انتَشَيْتُ لِلَحظاتٍ لأن الصمتَ سيهربُ أخيراً من داخلي، رُجّ الأطوبيسُ رجّاً فَعادتِ الأحلامُ الهاربة مني إليّ، ارتجفتُ ارتجافَ العصفورِ المبلل بماء المطر، البحيراتُ

الراكدة والراقدة في وسط الطريق تلاطمتْ من تحت الأوطوبيس المهترئ المثقوب، فَغَمَرَتْني وَبَلَّتْ ملابسي و وِزْرَتِي ومحفظتي وأوراقي، توقفَ الأوطوبيس وهديرُه، فلفظني وطرحني أمام بناية ضخمة، ها قد وصلتُ، أَخْرَجْتُ وزرتي البيضاء من المحفظة، تأملتُها وتأملتُ نفسي، ابتسمتُ ثم ضحكتُ ولستُ أدري لماذا؟ تأملتُ يدي فوجدتُها مبتورة، عُدْتُ إلى الضحك فوجدتُني نسيتُ أصابعي في أيت ملول..هّا..هّا..هّا..ما رأيُكِ في هذه النكتة يا صباح؟ ما رأيُكِ أيتها المرأة المُدهشة..؟ هي ليستْ نكتة، إنها الواقع الذي يرقصُ ألماً وينزفُ دهشةً وغرابةً ويسحقُني مُنْتَشِياً بِسُخْفِي..على كل حال لا يهمُّ..سأتابعُ..

لقد شَبِعْتُ مَوْتاً وحياةً يا صباح! كنتُ دائماً حينما أجرُّ ذُلّي إلى المعاهد الخصوصية الثلاثة لا أفكّرُ إلا في الراتب الشهري، حينما أنتظرُ بزوغَ يومِ الراتبِ الشهري -ذلكَ اليوم المشهود الشبيه بفتْح الأندلس- كأني أنتظرُ قدوم سفينة محملة بِذَهَبِ الدنيا، أو قُولي أنتظرُهُ كَعَرُوسٍ تنتظرُ عريسَها الهاربَ منها ليلةَ الدّخْلة، كَمْ كنتُ فقيراً وسخيفاً يا صباح! هل حقّاً كنتُ جِرْواً يلهثُ خلف عظْمٍ أو رميمٍ؟ لا.أنا لستُ ذلك الجِرْو لأن الأجراء على الحقيقة هي التي أحكي عنها لا تُقَدِّمُ لي رَمِيمَها حتى تُشْبِعَهُ لَحْساً ولَعْقاً، بعد أن أشبعَ أنا موتاً وحياةً في هذا الموت..!

خرجتُ من المعهد، وَقَفْتُ أمام الأوطوبيس بعد يوم شاقّ، أقفُ نكرة بالية، يُفتحُ البابُ الخلفيّ، أهمُّ بالدخول، أضعُ قَدَماً مترددةً على السلم ثم..

- هل تصعدُ أم تَنْزِلُ..؟
- لا أدري.
- لا تدري؟ إذن اُخرجْ من أمامي وإلا قذفتُكَ كَكُرَةِ الكُولْف..
- حسناً لا تفعل..أُفضّلُ النُّزُولَ على ما تقول..

أَسَمِعْتِ ماذا قال لي أحدُ الركاب؟ يريدُ أن تُرْسِلَنِي قَدَمُهُ من شتوكة إلى أيت ملول على جناح السرعة..أنزلُ من الأوطوبيس بعد أن اقتنعتُ أني لن أقوى على لَكَمَاتِ المراقبين حينما يضبطونني متسللاً لم أُؤَدِّ ثمن التذكرة، أرأيْتِ؟ انقضَى رأسُ الشهر بتسعةِ أيام وأنا لا أملكُ ثمن تذكرة الأوطوبيس، الجيوبُ خاوية على عروشها لها قَرقَرَةٌ، آه..لقد أبصرتُ طريقا قدّامي فمضيتُ تحت المطر الغاضب، إنه المطرُ الغاضب مرة أخرى..أجرُّ الوهنَ وخيالَ المعهد وعجيجَه وطنينَه لمسافةٍ تُقاربُ العشرين كيلومترا تجعلُ الفؤادَ يبصقُ على نفسه وعلى وُجودِه..

استسلمتُ للمشي، ما مِنْ بُدٍّ من ذلك، لكنني بعد قليل أصبحتُ مُكَدّساً في طاكسي كبير بعد أن أَنْقَذَ اللهُ قَدَمَيَّ من هذا الطريق الطويل الظالم، فوجدتُ صُدْفَةً خمسين درهما مُبَلّلَةً على الطريق، جَفّفتُها بسرعة على سروالي ثم وضعتُها خلسةً في جيْبِي مُحاذراً أن يراني أحدٌ فيزعمُ أنها لَهُ.. اِتّخَذْتُ سبيلي إلى حي المسيرة بأكادير، لأحضرَ حفلاً لتأبين الشاعر محمود درويش نَظّمَتْهُ جمعية"إشراقات" للثقافة والرياضة،ثم بعدها أرتدّ إلى جُحري في أقصى أيت ملول،

ولكن ماذا أُقَدّمُ وماذا أُأَخّر؟ هل أنحشرُ في الطريق الذي يئنُّ من سياطِ المطرِ حتى آخرِ مَدِّ البصر، أم أَلْزَمُنِي حيث أنا مُستمتعاً بغيابي في هذه المدينة الأخطبوط وأنا في حضرة صاحب"في حضرة الغياب"؟ ومن سوء طالعي دائماً أن المسرح والسينما والندوات والمحاضرات، والصالونات الشعرية والأدبية ولقاءات الكتّاب والأدباء والنقاد، والمقاهي الأدبية كنتُ مهتما بها وأَجُرُّ إليها مشياً على الأقدام من أيت ملول حتى كلية الآداب ابن زهر بأكادير، والقصرِ البلدي وسينما ريالطو والمركبِ الثقافي جمال الدرة، والمركبِ الثقافي خير الدين ومسرح الهواء الطلق، وقد هاجتِ الفنونُ في عروقي ودمائي لكني لا أملكُ المالَ الذي يجعلني أتملّى بها..!

لم أتأرجحْ في الاختيار.. قد سلّمتُ نفسي لِلَسَعَاتِ المطر..سيارةُ الأجرة الحمراء التي حملتني من حي المسيرة إلى "الباطوار" إطارُها العلوي ممزّق، والماء يتدفقُ من ثقب فظيع فيه..انتظرتُ تحت المطر، لوّحتُ لسائق طاكسي كبيرة في المحطة، ثم قطعتْ بنا الطريق الممتد من الباطوار إلى إنزكان والظلامُ قد تناثرَ في أحضان المدينة وغمرنا بثقله، اكتظّتِ الطاكسي، واختنقتْ فيها أنفاسُ الركاب، وفيما نحن نحدّقُ في بعضنا البعض في ظُلمة باهتة تُبدِّدُها مصابيح الشارع، قال أحدُ الركاب للسائق مزمجرا:

- لماذا توقفتَ هنا؟ الأجدرُ بك أن تُسرعَ ولا تَقفَ إلا في المحطة.
- ولماذا؟

- قطتي مريضة، وهي تحتاج إلى عملية جراحية، وأنا على موعد مع الطبيب في عيادته قبل مَتَمِّ الثامنة ليلا.

تَهَامَسَتْ عيونُنا رَهَباً -وقلوبُنا- بما نسمعُ، وبعضُنا يحدّقُ في بعضٍ والدهشةُ تلحس جبيننا المقطّب.تذكرتُ مظاهرةً حاشدة في قناة الجزيرة قامتْ بها مُنظمَّةٌ في ابريطانيا حول حقوق فئران التجارب، فابتسمتُ مندهشا، لما ظننتُ الرجلَ من ابريطانيا!

خرجَ رجلٌ من الرُّكاب عن دهشتِه فقال:

- عملية جراحية لِقِطّةٍ؟؟ وبِكَمْ؟
- ألفيْ درهم.
- المبلغ يشبه راتبي الشهري، إلا أنه يَفْضُلُ راتبي بخمسمائة درهم..!

قال أحدُ الركاب مُتهكّماً:

- حَرِيٌّ بكَ أن تنقلها في سيارة إسعاف خاصة، لا في طاكسي! المسكينةُ ستتألم هنا! الرفقُ بالحيوان سلوك مدنيّ رفيع..
- دعِ السيارة تنطلق بنا أيها السائق بجنون..
- وما ذنبُ السائق إن كان يحترم الأضواء الثلاثة؟ قد تَوَقّفَ ليحترم القانون!
- الطريقُ خالٍ، ولا تهم أضواءٌ ثلاثة أو أربعة، وفوق هذا كله فالقطةُ مريضة، وللضرورة أحكام.

- أَصَبْتَ يا رجل، الرفقُ بالحيوان واجب..
- قل لي يا سيدي يا صاحب القطة ما مهنتُك؟
- بَحَّارٌ.
- في أعالي البحار أم في أسفلها؟ في المغرب أم في إسبانيا؟
- شأني كشأن كل البحّارة ..
- هل تملك هذه الألفيْ درهم؟
- اقترضتُ ما يلزمني من البنك.
- والدواء؟ وفحوصات الطبيب البيطريّ الأخرى غير العملية الجراحية، هل تملك مصاريفها؟
- سأعود إلى البنك؟
- وماذا تأكل وأولادك؟
- زيت أركان.
- طيب! ما عُمْرُ القطة؟
- ستُّ سنوات..

عاد الراكب إلى التهكم، قال بعد ضحكٍ مكتوم:

- دهرٌ طويل! ما شاء الله! المسكينة..تُدمي القلب وتبعثُ حَقّاً على الشفقة! الرسول عليه السلام يقول: "عُذِّبتْ امرأة في هِرّة.." فَلْتُشْفِقْ عليها وعلى صاحبِها أيها السائق..سْرِبِي اللهْ اِرحمْ الوالدين..أسرِعْ أرجوك..اِنْطَلِقْ بنا كما قال لكَ..

****

طلبتُ من السائق أن يتوقف في المكان الذي ربطتُ فيه الدراجة قبل البارحة، كنتُ متيقّنا أنني لن أجدها، لكنني لحسن حظي وجدتُها كَدَابَّةٍ صريعة، قدْ غَمَرَها ماءُ المطر، وقد طرحَها اللصوصُ على الأرض بعدما يئسوا من فكّ قيْدها الذي يعودُ عمرُه إلى عِقديْن، وأغلبُ الظنّ عندي أن رحمتَهم بها وإشفاقَهم عليها -بِعَدَمِ سرقتِها- مردُّهُ إلى كونها بالية وقديمة لا تصلح للبيع ولا للتَّنَزُّهِ ...

مضيتُ إلى محطة البنزين فملأتُ خزّان الوقود بنصفِ لترٍ منه، ثم انطلقتُ بالدراجة إلى وَكْري عفواً أقصدُ.. أعني بيْتي، فما أن تقدّمتُ أربعين متراً فقط حتى توقفَ قلبُها فتعطّلتْ من جديد، فترجّلتُ لأِنظُرَ ما أصابَ اللّعينةَ، فَوَقعَ عليّ من السماء مطرٌ رهيب، وظللتُ كجاموسٍ صغير ضَلّ عن القطيع فَبَقِيَ وحيداً يتأملُ الأُسُودَ في استسلامٍ وهي تشحذُ أنيابَها لِتُرَحّبَ بِهِ في بطنِها..آمّيمْتِي..! كيف سَأَصِلُ إلى المنزل والمسافةُ أمامي في بَطْنِ الظلامِ تمتدُّ إلى خمسِ كيلومترات أو أكثر!؟

..اِسْتسلمتُ للمسير ولم أَجِدْ بُدّاً مِنْ الانكفاءِ على مضضٍ، وتحتَ سياط المطر، وأنا كالميّت الحي أو كالحيّ الميّت. دفعتُ الدراجة الثقيلة إلى الأمام وأنا أجرُّها وأحسُّ بتعبٍ فظيع يُكهرِبُ عروقي، والهواءُ البارد يجمّد الدم في جوانحي، وظَلَّ دأبي هكذا إلى أن وصلتُ إلى الطريق التي تربط إنزكان بأيت ملول،

وفجأة تَوَقّفْتُ في خمولٍ وتراخٍ وذهول بعد أن سمعتُ جلَبَةً وضوضاءً، والتفَتُّ عن يميني فإذا جماعة من الصعاليك وقطّاع الطرق ينادونني مُهَرْوِلين، والمطرُ يَنْزِلُ ويكتسِحُني بقطراتٍ نَحْلِي هذه المرة، أحسستُ برغبةٍ شديدةٍ وضروريةٍ في البكاء لكنّ محاجري للأسفِ كانتْ فارغة، كانوا خمسة ذئابٍ لكن يبدو أنها بريئة، تَقَدّمَ الأَرْبعةُ وتخلّفَ الآخر الذي كان غائباً في مكالمة هاتفية، أخذَ كلُّ واحدٍ منهم مكانَه كأنهم في تدريب عسكري، ثم تحوّموا حولي، وقد رفعوا كلُّهُم سيوفاً عطشى، ما هذا يا صباح؟ ذئابٌ ترفعُ فَوْقِي سُيُوفاً كَسُيُوفِ التّتارِ والمغولِ ليلتهموا شاةً يتيمةً مثلي؟ ماذا سأقدّمُ لهم من المال ليذهبوا عني؟ وأين هو هذا المال الذي سَأُقَدِّم وأفتدي به؟ ربّاهُ أَغِثْنِي أرجوك..صحيحٌ أني أكرهُ الحياةَ لكن أبي وأمي وصباح يحبُّونني، وأحبُّ في هذه اللحظة بالذات أن أتعلّقَ بقَشَّةِ الحياةِ وأن أعيشَ ولو عيْشَةَ الخنافسِ والكلابِ الضالة ..! أنا راضٍ بأَيّ حياة وسأتمسَّكُ بِأَهْدَابِ أيّ حياة..!

اِستسلمتُ بلا مقاوَمة، قال أحدُهُم:

- هاتِ ما عندكَ بلا ضجيج..بلا مقاومة..
- لا شيءَ معي يا سيدي!
- ستدفعُ الثمن غاليا لوْ وجدنا غيرَ ما تقول..
- أنا أقول الصدق، وبِوُسْعِكُمْ أن تُفَتّشُوا حتى خزّان الوَقودِ في الدراجة لو شئتم.
- أَلَمْ تَسمعْ أيها الوغد؟ هاتِ ما عندكَ بلا مشاكل أقولُ لكَ..

- أُقسمُ باللهِ إنني لا أملكُ غير نفسي وهذه الدراجة المعطوبة..
- دعْنا من كلام النساء.. أَتَخَافُ كالنساء أيها الـ..؟ هيّا..هَاتِ ما عندك بِلاَ حَسِيسٍ..

تَصَاعَدَ التهديدُ، فوضعَ أحدهُم حدَّ السيف في موضع النّحْر- المكانِ الذي تُفَضّلين يا صباح أن تضعي فيه قلادتكِ وهديّتكِ- أردتُ أن أُقاتلَ قتالَ اليائس لكني لم أفعل، فقلتُ وقد اختنق الكلامُ في حلقي وقد هاجتْ ضرباتُ قلبي في صدري، وقلبي وكأنه سيخرج من فمي، وأحسَسْتُ وكأنّ قلبي بلغَ الحلقومَ ولا ريبَ سأودّعُ الوجود:"أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أن محمداً رسولُ الله"، وتمَنّيْتُ صادقاً أن أكون في هذه اللحظة من الذين يتوبون من قريب، فسمعتُ أحدَهم من تحتِ سيفهِ اللامع بمصابيح الشارع يقول لي غاضباً وساخطاً وهو يضغط على أسنانِه وَسَيْفِه:

- لا حركة..لا ترْفعي صَوْتَكِ أيتها النعجة وإلاّ ذَبَحْتُكِ.. هيّا اِخْرَسي حتى نستفرغ ما لَدَيْكِ إن كان لَدَيْكِ..
- .....
- لنا نفوسٌ تأمرُنا بما نشاء فلا تضطرّنا لفعلِ ما لا نشاء.. مفهووووم؟؟
- مفهوم يا سيدي..

ابتلعتُ ريقي وحسبتُه آخرَ ريقٍ أودّعُ به الدنيا، فقلتُ في استسلامٍ واستكانة وبصوتٍ مبحوحٍ هذه المرة:

- والله الذي تعرفون - ولا ربَّ سواه- إني أَبْسُطُ بين أيديكم ما أعرفُه عن نفْسي..أنا لا أملكُ حتى نفْسي..!
- لا تهمُّنا نفْسُك، يهمُّنا ما في جيْبك.
- خذوا حتى فؤادي وَفَتِّشُوهُ، فإن وَجَدْتُمْ فيه شيئاً مما تطلبون فلا تترددوا في أخذه..آميْمتي..آحْ آميْمتي..
- أَسْكِتْ نَعيبَكَ أيها الغراب..
- .....
- تْفُو إنه أشبهُ بفتاةٍ مراهقةٍ خائفةٍ على بكارتِها.. !
- ..أأأ..أأ..أنا...
- أنتَ ماذا؟ سَأَحْصُدُ رأسَكَ أيها الغراب إن لم تَصْمُتْ!

فَتَّشُوا الدراجةَ المسكينة وجُيوبَ السُّترةِ والسروال المبلّلِ بالمطر، فَلَمْ يعثروا إلا على البطاقة الوطنية، ثم استشاطوا غضباً وحَنَقاً، وانتفضوا غيظاً، فَصَفَعَنِي أحدُهم حتى وقعتُ على الماء الراكد فوق الإسفلت،ثم أَنْهَضَنِي آخَرُ فلكَمني في بطني ولم أستطع أن أصرخ، ثم أسقَطَني آخر على بِرْكة الماء التي ملأتِ الطريق، فغرقتُ في هذا الماء وأنا أنتفضُ وقد شربتُ ماءها العَكِر وتجرّعْتُه، فكان يُدخلني في الماء ويُخرجني وكأني جِرْوٌ صغير سقطَ في النهر ويلعبُ به الأطفال كلما صعد إلى ضفة النهر أَلْقَوْا به ليستمتعوا بعذابِه ونباحِه، آه ما أذلّني وقتَهَا يا صباح! رَفَعُونِي وقد التصقَتْ ملابسي كلُّها بجسدي، والبردُ يغزو أوصالي ويشلُّها، قال لي لصٌّ منهم غاضباً:

- مِنْ أينَ جئتَ أيها الجُرَذ ..؟
- إنه جاء من رَحِمِ القَحْط..!
- اُنظُروا إلى فِمِه إنه قاحل، ربمالم يَمْسَسْهُ حتى ماءُ المطر..!
- ألا تملكُ ولو درهما أيها المحش؟
- ولوْ سيجارةً..؟؟
- وَلَوْ رُبْعَة دْرْيَالْ..؟؟
- ولوْ قَدّاحَةً نشعلُ بها النار في شَعرك..؟
- تْفُو..يومٌ نحس!
- ابنُ كلبة....
- ابنُ زَا.....

بَسَطَ أحدُهُم يَدَهُ إلى حزامِ السروال، فحاولَ أن يفكّهُ عن موضع العقدة، والثلاثةُ الآخرون يمسكون بيديّ ويُرسلانِها خلف ظهري حتى لا أتحرك تماما مثل شاة مسلوخة، والسيفُ من خلف ظهري لم يرتوِ بعدُ من دمِ عنقي، ثم صرختُ بأعلى صوتي المتحشْرِج:

- ماذا تحاول أن تفعل؟
- ألا تعلم؟ سوفَ نفعلُ ما سَتَرَى..
- وماذا سأرى..؟
- سوفَ نُفَتّشُ عُضْوَك؟

- ولكن لماذا..؟
- ستعرفُ لماذا؟
- أرجوكم.. الله اِرْحَمْ والْدِيكُمْ..لماذا تفعلون هذا..؟

تَعَالَتِ الضحكات والقهقهات فقال أحدهم مجيبا عن سؤالي:

- نحن نريد فقط أن نتأكّد هل أنت ذكرٌ أم أنثى..؟
- أرجووووكم لا...!
- وحينما نتأكد..
- أرجووكم لا..!
- سننتقل إلى المرحلة الثانية..
- أرجووكم لا..!
- ثم المرحلة الثالثة..
- أرجووكم لا..!
- ثم الرابعة..
- أُنَاااااااشِدُكُم الله لا تفعلوا..أليسَ منكم رجلٌ رشيد يعرفُ حدود الله؟
- اُصمُتي يا فراشة.. يا ابنَ الـ..ولا تُفسدْ علينا وَجْدَنَا..!
- أنا ابنُ شيخة ولستُ ابنَ زَ...
- اُصْمُتْ إذنْ يا ابن الشيخة..!
- اِرحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء..!
- سوفَ نعملُ معكَ عمل قومِ لوط..

- قومِ لووووط..؟؟؟؟
- سوفَ "ننكِحُكِ" أيتها النعجة على سنة الله ورسوله..
- تنكحُني؟؟ و..وو..وعلى سنة الله ورسوله..؟؟؟!! في أيّ الكتب السماوية وجَدتَ هذا؟؟

ضَرَبَنِي أحدُهم على رأسي بقبضةِ يدهِ لِيُرغِمني على السكوت، ثم قال ضاحكا:

- لا تَنْبِسْ، أَدْخِلْ لسانكَ الطويل في فِمكَ القَذِر..في المرة المقبلة إذا أردتَ أن تمرّ من هذا الممرّ بسلامٍ عليكَ أن تضع شيئاً من المال في جيبِك..مفهووم؟
- سأفعلُ يا سيدي، أؤَكّدُ لكَ، فَطِبْ خاطراً..
- فاتَ الوقتُ على هذا أيها الـ...سوفَ نَنْكِحُك..وقبل ذلك سوف نملؤكَ بهذا العطر الفرنسي حتى يُنْسِينَا رائحة ملابسِك القذرة..

أَسَمِعْتِ يا صباح أَمْ لَمْ تَسْمَعِي؟ يريدون أن "ينكحوني"..؟؟ أشارَ إلى عطرٍ في يده، ثم رشّني به، لكني فقدتُ صوابي فلم أرضَ أن ينالوا مني ما أرادوا، فحاولتُ جُهْدِي حينئذٍ أن أَنْفَلِتَ منهم لكن لا مَناصَ من قبْضتهم ولم تنفع المقاومة، فالسيوفُ لا محالةَ ستشربُ دمي، أردتُ أن أنتزعَ السيفَ من يدِ أَحَدِهِمْ لأَقتُلَنِي أو أَقْتُلَهُم حتى لا يَنعموا بما سيفعلون، لكنَّ السيوفَ الأربعة كانت تُطَوِّقُ عنقي فكنتُ كَقِطّةٍ عَلِقَتْ على شَفَا شَلاَّلٍ، انتفضتُ بأقصى قِوَايَ، كنتُ كَثَوْرٍ هائجٍ مَعْصُوبِ العينيْن، فَامْتَلأَ رأسي برغبةٍ هائجة في تدمير

كلّ شيء، فلما سمعَ الصعلوكُ الخامسُ صراخي المبحوح جاء مُهرِولاً، يبدو أنه قد أَنْهَى مكالمته الهاتفية، ويبدو من هَيْأَتِهِ أنه زعيمُهم، فلما تقدم نحوي تَأَمّلَنِي طويلا ثم صفعَ الأربعةَ كلَّهُم، وقال لهم وقد جاءني كلامُه بردا وسلاما:

- أيتها الوحوش ألا تعلمون مَنْ هذا؟
- هل هو من أفراد عائلتك؟
- هل هو ابنُ عمك ؟ ابنُ خالك أو خالتك..؟
- إنه أستاذي يا ذئاااااب..!
- أستاذك؟!
- أَيْ نَعَمْ، أستاذي..

قَبَّلَ التلميذُ/الذئبُ يدي ورأسي وطَمْأَنَنِي، ثم أَمَرَ اللصوصَ الآخرين أن يقبّلوا رأسي ويدي، ثم انصرفَ مع رفاقه وقد أَرْغَمَهُمْ على الاعتذار وهو يعاتبُهم ويَنْهَرُهُم ويركلهم حتى تَوَارَوْا عني..

تَحَسّسْتُ عنقي ويدي وظهري لأرى هل ما أَزَالُ حيّاً، فَأَحْسَسْتُ بفزعٍ شديد ورُعْبٍ فظيع لِمَا حدث، لكني- وَكَمَنْ خُلِقَتْ مَعَهُ المصائبُ في المَهْد وتَوَشَّحَ بها سائرَ حياتِه- شَقَقْتُ طريقي مجددا كأفعى عجوز وأنا أَدْفعُ الدراجة إلى الأمام، وقدمايَ تغوصانِ في بِرَكٍ كثيرة وحُفَرٍ بَشِعَةٍ عامرةٍ بماء المطر على طول الطريق..وها أنا في آخر اليوم أعودُ وأدورُ إلى مأوايَ كَخُذروفِ الصّبيِّ..كنتُ في حاجة شديدة إلى النوم والاسترخاء والغياب عن نفسي ليومٍ كامل، لقد

تعبتُ كثيرا يا صَبّوحة وتَسَاقطَ لِحَاءُ عقلي وشفتيّ وجلدي، وإليكم عني فلا أريد سوى أن أنسى أني أتمطّى في الألم وأعتلي صهوةَ الرّدى..أريدُ أن أحيا في الغياب لأنفضَ عنّي نفسي مؤقتا وأتخفّفَ منها..

واصلتُ السّير.. أَطْبَقَ الليلُ واكتَسَتِ السماءُ حزناً غامضاً، وقد هيّأَ لي وَهْمِي أنّ غيومَها وكأن فيها عيوناً شامتة تُقهقهُ وتنظرُ إليّ نظراتٍ شزراء، وتَترقَّبُ متى أَسْقُطُ لِتُطلقَ ضحكتها المدوّية من فوقي، آآآه.. أنا المجروح بما لا أدري .. أنا الظمآنُ بما لا أدري فلا شَفَانِي الله أبداً !

توقفتُ لحظةً وأنا أتأملُ الدراجةَ والماءَ الأسودَ الذي يَسُدُّ مَدَّ البصر من تحتها على طول الطريق، أحسستُ بعطشٍ جارف، توقفَ المطرُ عَدَا زخّاتٍ خجولة تنقر رأسي، وضعتُ يدي على المقود وتفحّصْتُ المحرك وخزان الوقود والإطارينْ الفارغيْن..هيا يا عزيزتي الدراجة اِسْتَأْسِدِي هذه المرة فقط، وأعينيني على حملِ أضلاعي إلى جُحْرِي..

شَرَعْتُ في الركض لأشغّل الدراجة وأمتطيها حتى ولو كانت عجلاتُها لا تسمح بركوبٍ مريح..يا الله..يالَلمفاجأة! لقد اشتغلَ المحرك، مَرْحَى مَرْحَى أيتها العجوز! انطلقتُ أشقُّ أمواجَ الوحلِ والماءِ الممتدِّ على الطريق مثل غزالة انفلَتَتْ من فكّ أسدٍ هائجٍ جائع، لم أعبأ بالعجلات الخاوية والماء المتطاير من تحتي ولا بنفسي، ولا بالمطر الذي تدفقَ فجأةً من السماء، ولا بالريح التي هبّتْ مع المطر، ولا بالبرد الذي يقتحمُ ساقيّ ورئتيّ المنخُورتيْن ولا بالليل، ولا بقدميّ اللتيْن تغوصان في الوَحَل، فانطلقتُ مثل قذيفة هائجة، لا أرى أمامي إلا سرير الغرفة

وقد عُدّ لي لأتلاشى فيه إلى الأبد.. اكتسَحَتْنِي فرحةٌ عارمة وأنا أتخيّلُ نفسي وكأن الملائكة تحملُنِي برفقٍ وتضعُنِي فوق السرير مغمض العينين مثل وليدٍ رضيعٍ وقد دَفَنَنِي النومُ في أحلامٍ حريريةٍ لا أستيقظُ منها حتى ألقى الله.

..هيا أيتها الدراجةُ العجوز هَا أنتِ كعروسٍ تستعجلُ الزغاريدَ والحفلَ ليشهدَ الناسُ فستانَها الفضفاض، هيّا أَسْرِعي.. اِمْضِي في رعاية الله اِمْضِي لاَ فُضَّ مُحَرِّكُكِ.. اِمْضِي فأنتِ بلا ريبٍ كـ(المُنْجَرِدِ قَيْدَ الأوابِدِ هَيْكَلِ)..

وصلتُ إلى المنزل. هَدَأَ سُعارُ الدراجة، توقّفَ صوتُها المزعج. تَرَجَّلْتُ عن الدراجة، توقّفتُ لألتقطَ أنفاسي فإذا بي أبتلعُ ريقي، وأبهتَ من هول الصدمة القوية! ماذا أرى أمامي؟ صاحبُ الدار يُلقي بمتاعي كلَّهُ عن بكْرةِ أبيهِ خارجَ الدار، ويُقْبِلُ على إلقائه بِتَلَهُّفِ المُقَامِرِ، لأني لم أدفع ثمن كراء الحُجرَة التي أسكنها لثلاثةِ أشهُرٍ بسبب تأخر مستحقاتي من المؤسسة التي أعمل بها! يا إلهي! يا ويلي ماذا أرى؟! أتمنى أن يكون ما أراهُ حلماً لا حقيقةً! لقد ألقى بكل شيء في الماء والوحل، حتى الصراصير التي عَلِقَتْ بمتاعي لَمْ يرحمْها، دفنَها في ماء المطر والوحل، اِتّقَدَ غضبي، عينايَ تقدحان شرراً من الحَنَق والهيجان، لكني لم أستطعْ أن أحتجّ ولوِ لأُبْقِيَ على حَبَّةِ خردلٍ من كرامتي.. ولو قطرةٍ.. ولوْ ذَرّة..، لَمْ أَقْوَ على النطق..لم أنبسْ يا صباح بكُلَيْمَة واحدة لأني لا أقدرُ على ذلك. ضحكتُ مِلْءَ صدري ضحكةً مريرة عَلَّنِي أَتَنَاسَى، تَشَلَّلَ كلُّ شيء في كياني،

لقد طعنَ الحاجُّ قلبي..كلُّ ما فعلتُ لأُخفّفَ من صَغَارِي وضآلتي أمامه وحقدي عليه أني رميتُ نافذتَهُ بحجارة كانت في جَيْبِي-أُرْعِبُ بها الكلاب الضالة التي تحومُ حولي وتتمسّحُ بي كلما عدتُ إلى المنزل في منتصف الليل- أَطَلَّ الكلبُ من النافذة مذعوراً، ثم صَرَخَ في وجهي:

- ماذا تريدُ أيها اللص..هل تظنُّ أن البلاد بلا مخزن..؟
- مساء الخير آسِّي الحاج..
- من أين يأتي الخير معك يا وَغْد..يا سافل..يا حقير..؟
- حْشُومَا آسي الحاج..انزلْ لأَسْمَعَكَ جيدا وَتسمعني و..لِنَتَفَاهَمَ..
- نتفاهمُ على ماذا أيها الحمار..؟
- عِيبْ عليك آسّي الحاجْ أن تقول هذا الكلام، وأنتَ قد زُرْتَ مقامَ النبي صلى الله عله وسلم حَاجّاً ومُعتمِراً..أنا لستُ حماراً كما تعلم..!
- اعطيني نقودي يا لصّ..
- أنا لستُ لصاً آسّي الحاج، لقد أطلعتُكَ على وضعي بكل صدق وصراحة واتفقنا على ما تعلم، أَمَا كان عليكَ أنْ تنتظرَ على الأقل ريثما يطلعُ الفجر..؟
- اِعطيني رزقي يا بحش..
- اتّقِي الله يا حاج أنا لستُ بحشاً..أمْهِلْني خمسة أيام فقط ثم سأدفعُ لكَ حتى إيجارَ الشهور التي لم تدخل علينا بعد..وهذا وَعْدٌ مني، وأقسمُ باللهِ العظيم لن أُخْلِفَه، أنسيتَ ما تعاهَدْنَا عليه أمس..؟

- لن أنتظرَ بعدَ اليومِ يا ابن الكلب..
- عيبْ يا حاج..الحياءُ خلقٌ جميل آسّي الحاج..
- ليس لديّ وقتٌ للمواعظ..

أَكَلَنِي الغضب، لم أَعُدْ أطيقُ سماعَهُ، قلتُ له ساخراً وعيونُ الجيران التي تتوارى خلف النوافذ لم تَنَمْ بعدُ:

- يَلْزَمُكَ ألا تقولَ هذا أيها الزَّنِيم، ويلزمُكَ أنْ تَلْزَمَ المسبحةَ والقرآن والذِّكر والمسجد لاسيما وأن بكَ شيخوخةً تُسْرِعُ بكَ إلى القبر..!

صفّقَ الحاجُّ النافذة مُزمجراً ومُرعداً، ثم نزلَ السّلمَ بأنفاس متقطعة -مثل بطّة عجوز- وقد اشتعلَ غضباً، فلما بلغَ البابَ بعد جُهدٍ جَهِيدٍ تقدّمَ نحوي فأخذ بمجمع السترة في عنقي وحاولَ شَنْقي،لم أتجرأ على المقاومة لأنه في مثل سنّ والدي، وهو أقصرُ مني وتصلني أنفاسُه المتقطعة من تحتي كآلة معطوبة، فلم أشأ أن أضربه أو ألكمه أو أَلْكِزَهُ، ربما لأن صبره عليّ لثلاثة أشهر يشفعُ له، أو لأن صورةَ والدي ترتسم على وجهه المكفهرّ المدفونِ في التجاعيد، ولقد فكَّرتُ جاداً في أن أَدْفِنَهُ، أوْ أمرّغَ وجهَهُ في الوَحَل والطين أمامي وأمام زوجته التي بدا وجهُها مطلاً من النافذة مثل البومة، لكني لم أستطع لأن شيئاً ما في داخلي لا أدركُ كُنْهَهُ يجعلني أَرْبَأُ بنفسي عن ذلك، كان يضربني برأسه على بطني مثل وَعلٍ أحمق وقد ظننتُ أن له رأساً لا تثريبَ عليه من حيث عقلُه وتعقُّلُه لكنه ويالَلأَسَى كان يحملُ رأسَ بغْلٍ! إنه "الشّرْفْ أُولْهْبَالْ"يا صباح..!

حاولَ كطفلٍ صَغِيرٍ شقيٍّ أن يُزحزحَ ساقي، ويزيحني من موضعي ويدفعني ليسْقطني على الوحل لكنني لم أتزحزح من مكاني، كنتُ غاضباً غضباً أعمى، لكن لِحُسْنِ حظه أطفأتُ غضبي بابتسامات جافّة أَوْدَعْتُهَا كُلَّ حِقْدِي عليه..

كُنّا مثل دِيكَيْنِ مُتصارِعَيْنِ، مُتغلغلَيْنِ في فوضى هائجة..ولسوء طالَعي تصادَفَ شِجاري مع الحاج مع مرورِ دورية ليلية للشرطة، فأخبرَهُم الحاج بالقصة وكانوا من أصدقائه، فقبضوا عليّ بلا روية وبلا تريّث لسماعي، وألقوْني في السيارة وأنا أُشَيِّعُ مَتَاعِي مِنْ خلفي كَنَسْرٍ جريح، وأُشَيِّعُ المعري والمتنبي ودرويش وفيرجينيا وُولف وهم يغرقون في تجاعيد البِركة بجانب الدار، والحاجُّ يُمعِنُ ضاحكاً وشامتاً في تَغْطِيسِهِم في الوحَل والماء، وحتى الدراجة لم يُسندها إلى الحائط بل أَمَالَهَا وطَرَحَهَا في الماء، رأيتُ كلّ شيء من خلف النافذة يا صباح، تأملتُ كل شيء..كان الموقفُ مُحزِناً جدّاً يا صبّوحة.. ! هذا الحاجُّ الرهيبُ عقربٌ يا صباح.. حقّاً إنه فظيع ..فظيع جدّاً..! شيَّعْتُ كل شيء من خلف النافذة، آه..كأميرة من أميرات النبلاء تودعُ حبيبها الأسير من عربتها لوّحتُ بيدي مودعاً المتنبي وابنَ رشد وابنَ الرومي وألبير كامو، وباكياً بحرارة هذه المرة حتى شربتُ دموعي وارتويْتُ من البكاء.. طلبتُ من الشرطي أن يسمح لي بإلقاء نظرة خاطفة من النافذة الخلفية للسيارة على حبيبي المتنبي وهو يبتَلُّ تحت المطر، لكنه وَكَزَنِي بشدة وغلظة وقال لي:

- اُصْمُتْ أيها البغل وإلا غرزتُ المسدّسَ في فَمِكَ..
- المتنبي يغرقُ يا شّاف.. !
- ستغرقُ في الكوميسارية أيها المعتوه..
- المتنبي يا شاااااااف...!؟
- سأُغرقُكَ في مرحاض الكوميسارية-حينما نَصِل-إن لم تصمتْ..
- المتنبي يا سيدي..إنه المتنبي..صاحب الكافوريات والحمدانيات..!! ألا تعرفه؟ يلزمُك أن تعرفه..
- سأُهشّمُ رأسَكَ الصّلد أيها المزعِج..!
- سيدي، أرجوك، ابنُ الروميّ يغرقُ.. ألا تعرفه؟..
- سَأُقَشّرُكَ..ستفقدُ أسنانكَ إنْ لـمْ تَسكُتْ..
- هيمنغواي يغرق يا سيدي.. ! كَوَابَاتَا يغرق يا شاف..!
- ستفقدُ ساقَكَ إنْ لـمْ تَسكُتْ..
- ابنُ الفارض يغرق يا سيدي..!
- اُسْكُتْ أقولُ لك..
- القاضي عبد الجبار يغرق يا سيدي..!الأصول الخمسة تغرق يا سيدي..!
- ألا تسمع يا حمار..؟ هل تشتاقُ إلى لَكْمَةٍ تُنسيكَ وجودَك..؟
- حيوان الجاحظ يغرقُ يا سيدي..! ألا تعرفه..؟؟
- ستندم على تضييعي وقتي في الثرثرة يا حيوان..!
- سيبويه يغرق يا سيدي..إنه سيبويه الذي سَدّدَ لسانَ الأشقياء..!

- غَضَبِي عليكَ يتضاعف وقد ينفجرُ الآن فلا أستطيعُ رَدَّه أيها الشقيّ..
- أحبّتي الصراصير يغرقون يا سيدي..
- وَيْلَ أمكَ يا صرصور.. سَأَسْحَقُك.. !
- التوحيدي وابنُ حزم وابن سبعين وبودلير وابنُ خلدون ووو...يغرقون سيدي الشّافْ..يجبُ أن تتوقفَ السيارةُ حالاً لِنُنْقِذَ هؤلاء..سأبكي كطفلٍ صغير إن لم تُوقِفُوا السيارة..

صفَعَني صفعة مدوّية سمعتُ في طنينها ذبذبات "بي بي سي" من لندن، ولكَمني لكمةً بارعة، وقرَع رأسي بِعَصاً غليظة فسكتتُ في الحال كطفل مُذنِب أُرْغِمَ على الصمت، وأنا أكتمُ بين جوانحي بكاءً حارّاً وقاهراً وضرورياً لأُطفئَ به اندهاشي.توقفتِ السيارة أمام مبنى ولاية الأمن، فقَذَفُوني في سرداب الكوميسارية، وطرحوني على أرضها مثل جَرَادَةٍ كُسِرَتْ رِجْلُهَا.

لاَ ضَيْر، لقد مَكَثْتُ مع اللصوص والشحّاذين والعاهرات والصعاليك والمجرمين هناك ساعتيْن من الزمن، والبردُ يلسعُ جسدي-الذي أمسى كالعرجون القديم- وينهشُه، ولما أَنْهَوا التحقيق معي لم يَشْفَعْ لي عندهم معرفتُهم أني أستاذ، ولم يشفع لي عندهم أيضاً أن ضابطاً كان تلميذي فَتَوَارَى عني في لمح البصر بمجرد أن رآني، بلْ لقد قَذَفُونِي إلى الخارج وأنا أقوم من الأرض بعد صفعاتٍ وركلات تَتْرى ومتواصلة من تلميذي الضابطِ الفظيع، فَأَنْهَضُ من الأرض الباردة المتآكلة مُتعثّراً ومهرولاً أُسارِعُ الخُطى، وأركضُ لألحق بالشعراء والأدباء

والفلاسفة والصراصير الذين غرقوا في بِرْكة الماء قرْب منزل الحاجّ الذي طردني..

بلغتُ مَوْضِعَ الجريمة التي لَحِقَتْ بِكُتُبِي وصراصيري، فَأيقظتُ جاري الذي يسكن في نفس الدار، بعد أن طرقتُ نافذة غرفتِه في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل طرقاً خفيفاً خشية زعجرةِ الحاجّ مِنَ الطبق الثاني، فناديتُه بصوت خافتٍ، واستعطفْتُه طويلاً - مثل شحّاذٍ يُمزّقُهُ الجوع- لأرقد في غرفته الضيقة إلى أن يطلع النهار، لأني لم أَعُدْ أقوى على التجلّد، ولا أستطيعُ أن أتحمّلَ البرد والمكوث خارج الدار، أردتُ حينها أن أنعمَ بالهدوء، وأتلاشى في نومٍ عميق ويشبعَ رأسي النوم حتى قيام الساعة، آنَ لي أن أموتَ قليلاً لأستريح من تعبٍ عتيدٍ وظَالِمٍ.أووف..قد كنتُ في أمرٍ لا يُنادى وليدُه!

قَبِلَ جاري إبراهيم إلحاحي بعدما وَعَدْتُهُ بمائة درهم مقابل مبيتي عنده - وقد كان هذا شِرِّيبَ خمرٍ ومُدْمِنَ مخدرات- وأشار إليّ بالدخول في إثره، دخلَ على مضضٍ ومَقْتٍ دون أن ينبس بكلمة وارتمى على سريره، وأنا متثاقلٌ في إثره لا أطيقُ صبراً على النوم، ومُحاذرٌ أن أصطدمَ بشبح الحاجّ الذي يلازم ذاكرتي.. وما إن وضعتُ رأسي على الوسادة حتى انهارَ مجرى الصّرف الصحي من فوق رؤوسنا وقد تدفّقَ منه ما تعلمين يا صباح، ودَوَّى منه ما تعلمين يا صباح..لقد غرقتُ في ماءِ الحاجِّ وأولادِه وزوجتِه الرابعة من فوقنا، وكُنتُ فانياً ومتلاشيا

تماماً في غياباتِ القذارة والوَحَلِ والعفن، وجاري قد أخذتْهُ سِنَةٌ ثقيلة من النوم بجنبي، وما إن وَخَزْتُه وأيقظتُه حتى هَبَّ مذعوراً وقد تلاحقَ السائلُ من فوقنا من ثقْبِ السقفِ المتآكلِ مُنهمراً كَشَلاَّلٍ أعمى، فهرعنا إلى الخارج، فتسلّلَ جاري على حينِ غرّة إلى منزلِ عاهرة تسكن بجانب منزل الحاج، أما أنا فَقَدْ دَمْدَمَ عليّ البردُ ونَخَرَ أوصالي والتصقتْ ملابسي بجسمي، فَاسْتَنَدْتُ مُرتجفاً كدجاجة مُبلّلة إلى الجدار، لأستردّ أنفاسي وأنفض ما علِقَ بثيابي، وفيما أنا زائغُ البَصَرِ أَتَأَمَّلُ دراجتي الطريحةَ كَبَغْلٍ مَيّتٍ على الماء، والكتبَ المبللة على بِركة الماء أمامي سمعتُ خرير ماءٍ متقطّعٍ يترامى من الجهة اليُسرى للبِرْكة، فلما انتبهتُ وجدتُ طفلَ الجيرانِ يبولُ على ما تبقّى من ابن الرومي ودوستويفسكي والمعري وشوبنهور..، حتى لوحةَ مُودِيلْيَانِي"عازف التشللو" لَمْ تَنْجُ من رَوْثِ اللعين! مُودِيلْيَانِي يا صباح: المفلسُ المعدمُ الذي يبيع لوحاته الباذخة مقابل الأكل في المطاعم!؟ واربّاااااه! لَمْ أُطِقْ أن أرى ذلك، طارَ صوابي ودماغي، فَقَدْتُ صَحْوِي، زَمْجَرْتُ في وجهه بآخر ما تبقّى في حنجرتي من صوتٍ مبحوح:

- ماذا تفعلُ أيها الشقيّ؟ ألا ترى أنكَ تُجْرِمُ في حقّ أناسٍ لا تعرفهم أيها الوغد الحقير؟ إنها كتُبٌ لا تعرف ما فيها! ما الذي يوقظكَ الساعة؟
- .....ليسَ لدينا دورة مياه يا أستاذ..
- وهل الفلسفة والعلم والشعر دورةُ مياهٍ لِسائِلِكَ؟ إنه أمرٌ لا قِبَلَ لكَ به! انصرفْ من هنا وإلا أغرقتُكَ في بَوْلكَ.. هيا اِذهَبْ من هنا أيها الجِرْوُ اللّعين الساقطُ سقوطَ هذا الحاجّ من فوقنا..!

هَرْوَلْتُ مُسرِعاً ومُكْتَوِياً بالغضب ومُشتعِلاً بالْمَضَض أتفقّدُ ما بقي من الكتب والمجلدات واللوحات، إنها حقا لمأساةٌ مُرَوِّعَة يا صباح! "بوريس ڤيان" كان ممن لقوا حذفهم في هذا الماء العَكِر، "بوريس ڤيااآآن" يا صباح الذي وَهَبَ حياته وفنه وموسيقاه لزوجته ميشيل لوغليز، ثم طَوَتْ كل هذا الحب- وقد جَرَتِ العادة أن هذا دأبُ النساء- ومَنَحَتْهُ لعشيقها الوجوديّ جون بول سارتر، فقط لأن هذا فيلسوفٌ أشهرُ من نار على عَلَم..يا لِلنساء يا صباح ما أَصْغَرَ أَحْلاَمَكُنّ..! بوريس ڤيان، تتذكرينه بلا شكّ؟؟ وتتذكرين روايتَهُ المُدوّية "سأذهبُ لأبصقَ على قبوركم" **j'irai cracher sur vos tombes** ، وتتذكرين أنكِ كنتِ تقولين دائماً لماذا تزوجَ بَعْدَهَا الراقصة السويسرية أورسُولا كوبلر؟ وأقول لكِ: لا بَعْدَهَا ولا قَبْلَهَا، الرجلُ مثلي حينما يَهَبُ كُلَّهُ لامرأةٍ تخلبُ روحَه،ثم يُدركُ أن حبَّها مجردُ ظلٍّ عابرٍ سيبصقُ عليها وعلى ظلها كما فعل "بوريس"، وكذلك أفعلُ ولن أنفق كلمةً واحدةً في أحاديث تافهة لقطيع من النساء الكاذبات اللاهيات..! لا ضيْر..حتماً سأعود يوما لأبصق على قبوركم آسّي الحاج والسّي المدير.. **j'irai cracher sur vos tombes Mr lhaj et Mr le directeur..**

المُهِمّ غاصتْ قدمايَ في الطين والوحَلِ يا صباح، ضاعَ كلُّ شيءٍ في الماء، ضاعَ حذائي الجديد وضاعَ الراديو وضاعتْ أغاني الزمن الجميل في الإذاعة الوطنية وأشرطة الرّكبة و رويشة والمغاري والعَلَمي والدكالي وبلخياط والإدريسي

وأم كلثوم وعبد الحليم والسماع الصوفي ووو.. غَرِقَتِ الكتبُ في الوَحَلِ وماءِ المطر، فَلَمْ يَنْجُ منها غير ورقة من ديوان أبي العلاء المعري كانتْ تطفو على الماء، كان فيها:

يا موتُ زُرْ إنّ الحياة ذميمةٌ *** ويا نفسُ جِدّي إن دهركِ هازلُ

****

نظرتُ إلى جاري الذي يُطلُّ من النافذة بعينٍ ذابلة، وهو يُشيِّعُني في أسىً وشفقة، قلتُ له:

- أعِدُكَ أن المائة درهم ستكون في جيبك، سأزورك يوماً، لستُ لِصّاً..وداعاً يا إبراهيم..

قال وكأنه يبحث عن أعذارٍ تُبرّرُ فعلةَ الحاجّ:

- يا محمود، الحاجّ طيبٌ رغم كل شيء، سَأُكَلِّمُهُ في أمرك ..

رفعتُ عينيْن حمراويْن إلى إبراهيم، فقلتُ والابتسامةُ المريرة لا تفارقُ لِحَاءَ فَمِي:

- الأفعى لا تخلو حقّاً من عواطف الأمومة..أَخْبِرِ الثعلبَ أني سأتركُ مبلغ الكراء لاحقاً عندَ ابنِهِ التاجرِ في السّوق المغطاة..

مضيتُ في أرض الله في هذا الليل البهيم تائهاً والحيرةُ تغشى بصري.. بلا هدىً وبلا نومٍ، أهيمُ على وجهي، وأشمُّ رائحة بول الحاجّ وأولادهِ على كتفي، فأخذتُ كل الأوراق والكتب المبلّلة ووضعتُها على ظهري كيفما اتّفق، أما مَتَاعِي الذي لم ينسَ الحاجّ منه ذرّةً واحدة-خزانةُ القصب والحصيرُ الممزّقُ والسريرُ البالي وقنينة الغاز والكؤوس والصّحون والغطاء الوحيد الذي قُدّمَ لي

هدية..- والذي ألقى به الحاج كُلّه في هذه البِرْكَة، وقدّمَهُ قُرباناً للمطر فَقَدْ خَلَّفَتْهُ للحاجّ بعد أن ضاع في الوحَلِ والطين، ليجعلَه سقْفاً لِحُمّ الدجاج وأقفاص الحَمَام والأرانب..

***

آه ..لقد نسيتُ يا صباح ما جرى بَعْدَهَا، ماذا جرى بعدها يا تُرى؟ لعلّ البردَ قد أرسلَ سياطه ليس على جسدي فقط، بل على ذاكرتي كذلك..على كل حال انتظِري قليلاً.. لا.لا تنتظري..لعلني تذكرتُ الآن..سَأُوَاصِل..

محمود

جواب الرسالة رقم (٥)

حَسْبُكَ.كَفَى يا محمود..لا. لا تُواصلْ يا محمود..

معذرةً يا محمود على هذ الضَّجَر مما تحكي، لكن اِسْمَحْ لي أن أكون مراهقةً ولو لدُقَيْقَة واحدة..دُقَيْقَة واحدة فقط، وأقول لك هذا الذي نجدُه عادةً على جدران المارد الأزرق الفايسبوك: **hhhhhhh** ...أتعلم يا حبيبي لماذا لا أفتح نافذة في هذا الجدار الأزرق؟ فقط لأنه عندي أشبه بالجدران التي نجد فيها عبارة :" ممنوع البول ورمي الأزبال يا حيوان"..**hhhhhhhhh** .....

هل ثَمَّةَ ما يُثلجُ الصدرَ ويستحقُّ أن يُسْمَعَ غير الدَّرّاجة ومربطها والطاكسي الكبير أو الصغير، والقطّة التي ستخضعُ للعملية الجراحية، واللصوص والذئاب والحاجّ وإبراهيم..؟ هلْ كنتَ تمضي حافيَ الأَصْغَرَيْنْ؟؟ ما أَطْوَلَ لسانَكَ في هذا يا هذا..! حَدّثْني مثلاً عن قلبِك العابس.. أو قلبي الثّامل بِكَ..أو عنْ وَقَارِ الحبّ، أو سِيرَتِنَا الأولى، أينَ قلبُكَ في ما أسمعُ وأقرأ..؟ حَدّثْ قَلْبَيْنَا المُتْعَبَيْنِ بِنَا عما يُجَدِّدُ بَيْعَتَهُمَا لِمَوْتِهِمَا وفنائهما، يجب أن أستمع لأنينِ جوعكَ في مثل هذا..حدّثني يا محمود أرجوكَ عن مُطارحتنا العذْبَة ..هل تَذْكُرُ ذلك البَهاء؟

لعلنا نجدّدُ إيماننا بأنفسنا، ونغسل بماء الوجد صدأ القلوب..قُلْ يا محمود..بُحْ وها أذنايَ صحنان فضائيان سَتُصْغِيَانِ وأصغي كطفلٍ مُهَذّب..وَاصِلْ يا محمود حديثَكَ في ما قلتُ لكَ، وبَعْدَهَا قَطَعَ الله لسانَ مَنْ يُعيقُ سَيْرَكَ في ذلك..

صباح

الرسالة رقم (٦)

لاَ ضَيْر، لن ألومَكِ يا صباح..

لن أضحك منكِ وعليكِ كما فَعَلْتِ أنتِ، حتى ولو كنتِ جَدّةَ مراهقي الدنيا ومراهقاتها عن بَكْرَةِ أبيهِم، سأقول كلاما عن الجامعة..هذا هو..نَعَمْ يا صباح..سأحدثُكِ عما تُحبّين..عن الجامعة هذه المرة..الجامعةِ التي جمعَتْنا أولَ مرة:

قد كنتُ في البدء أَتْيَهَ من قوم موسى كما نعلمُ معاً، حينما جرفَنِي شوقٌ أعمى لِلُقياكِ في مدرج الكلية، أتذكُرين؟حينها لم أستطعْ دفعاً لأشواقي، سَاقتْنِي قدماي إليكِ في يوم عاصف أُحسُّ برياحه الآنَ وكأنها تتوغل في أعماقي، وتُدحرجُنِي في الفراغ فَأَهِيمُ بلا هدىً لا أدري إلى أين أذهب.آه يا صباح الوديعة! ما أَبْعَدَ ما فات وما أقربَ ما يأتي! السياراتُ على الطريق التي تربط تِيكِوِين بالحي المحمدي تسارع الزمن في كل الاتجاهات، والمارة يسرعون الخطى كالنمل هرباً من صفعات الرياح الغاضبة، وأنا الدجاجةُ الثرثارةُ العوراءُ تَتَنازَعُني كلُّ السكاكين لتقدمني قربانا للحب المثالي الأعور.. آه..هل قلتُ: الحب؟ آه.. الحب؟؟ أنتَ الأصلُ في هذا الشقاء! آه .. الحب؟؟ أنتَ أيها الهدهد القاسي لماذا تفضحُ كُفْري المتأخر بكَ بين مُريديك؟ آه..الحب؟؟ أنتَ يا عرين العشاق ماذا فعلوا بمحرابك؟ آه..الحب؟؟ أنتَ أيها الطاووس الأجرب ما عندكَ لي؟؟

آه..الحب؟؟ أنتَ أيها الشيطان..آلشَّيْطَانُ يتجلَّى بكل هذا الجمالِ والحُسنِ؟ أُووف..دائماً أُغالطُكَ في رصاصاتِكَ الشرهة: لماذا تُطارِدُني في أَلَقِ النهايات وكلانا: لا شيء؟ كيف تَتَوَسَّدُ دموعي؟ أنا وأنتَ حُلفاءُ الخريف، إيه..أنتَ أيها الحب أيها الصياد، أمَا عَلِمْتَ أن البومة لو كان فيها خيرٌ ما تركها الصياد؟ فلماذا تطاردني؟ أنتَ أنتَ أيها الطارد المطرود..لستُ أدري..لا أنتَ ولا أنا.. !

***

هل حقّاً كان قلبي اللّدُودُ قد امتلأ بنسائمِكِ وطفحَ بكِ، وقد طال البكاء كالأطفال ولم يَعُدْ بُدٌّ مِنْ سَكْبِ ما بهذا القلبِ اللّعين..؟ هل تذكرين يا صباح كم كنتُ طفلا مُهذّباً وأنا أدحرجُ الكلمات من حلقي؟ وأنا أقول لك وقتذاك قرب النخلة اليتيمة التي تزين مدخل الكلية، وأنتِ تفرِكِينَ أصابعكِ، ومعها قلبي:

- لماذا تصمُتين؟
- ولماذا تصمتُ أنتَ..؟
- ..لا شيء..
- قُلْ ولا تَصْمُتْ..
- حالةُ الشحوب تنوبُ عني في مثل هذاااا الصمت..!
- هاتِ رأيَكَ في ما بيننا..
- قلبي..
- ما بِهِ قلبُكَ؟

- لو كان في صدركِ قلبي لأَدْرَكْتِ ما أقول قبل أن أقوله!
- ما في قلبِكَ واضحٌ كَفَلَقِ الصّبح.فَهَيَّا قُلْ!
- .....قَدْ قِيلَ ما سَأَقُول..

آه! حَقّاً لم يبقَ من الماضي إلا ذكراهُ المؤلمة التي يصلحُ أن تُزيّنَ جنبات متحفٍ مهجور..حَقّاً لقد تَصَافَيْنَا وقتئذ في الصمت، وكان حبُّنا الأبلهُ يقطرُ على استحياءٍ من دِنَانِهِ قطراتِه الأولى، ويحبو في مدارج السالكين إلى الهلاك..قَلّبْتُ أمري حينها، وترددتُ في الكلام فلما عزمتُ- و يَالَضآلتي- على الاستئساد أخيرا رنّ الهاتفُ الشخصيّ كفحيح أفعى هائجة، وطلع رقم المدير على شاشة الهاتف، وهو على وشكِ ثقْبِ أذني:

- آلو محمووود..!

قلتُ في نفسي:

- يا ليتني أستطيع تعلّم فن الزئير أوالفحيح لأُحْسِنَ مخاطبة هذا الرجل، ولأغمُرَهُ باحتقاري وبُغضي..!

لم يمهلني المدير، قال مُدَوّياً:

- أنسيتَ الموعد؟
- أي موعد سعادةَ المدير؟
- موعد الاجتماع! المديرُ البيداغوجي حاضر، ومديرُ الدراسات حاضر ومديرُ الموارد البشرية حاضر، وثلاثة مفتشين من الدار البيضاء الكبرى، والأساتذةُ زملاؤُكَ كلهم حاضرون إلاّكَ، أين أنتَ؟

- بضع دقائق وستجدُنِي عندكَ سيدي المدير، قد غاب واللهِ عن ذهني هذا الاجتماع..سآتي حالاً.
- غابَ عن ذهنك..أم أنتَ الذي غِبْتَ عن ذِهْنِكَ؟؟

قبل أن أنزع شحوبي وصوتي من الهاتف، كان مُديرُ المعهد قد أَضْحَكَ جمْعَ الحاضرين ناسياً أنه لـمّا ينسلخْ بعدُ عن محادثتي، وصوتُه المتهدج يصلني عبر الأثير كهدير آلة معطوبة، قال لهم عني ساخرا وكأنه في"جامع الفنا":

- هَهْ..هذه النعجةُ دائما متأخرة..!

ما كنتُ واللهِ يا صباح لأغفل يوماً عن أيّ اجتماع حتى الماراطونيّة منها، بيدَ أن السيد المدير ومن لَفَّ حوله كانوا يقولون من خلف ظهورنا: "إن مادة التواصل لا تُسمنُ ولا تُغني من جوع، والمؤسسات التي نتعامل معها ليستْ في حاجة إلى هذه المواضيع المزعجة، والمتدربون في مؤسستنا يلزمُهُمْ أن يكتبوا طلبات العمل وسيرهم الذاتية باللغة الفرنسية، لا بلغة الشعراء والقرون الوسطى و"قال الشاعر".." ويقول عنا مُنتشياً:"إن أساتذة التواصل قد كتبْنا أسماءَهُم بقلم الرصاص، وفي استطاعتنا أن نَمْحَوَهُمْ في أي لحظة".وماذا يهمّني يا صباح من أمرِ هذا المسكين، إن كتبَ اسمي بقلم الرصاص أو الفحم أو الطباشير أو الدم أو الصديد..؟ آه! ليتهُ يقوى على مَحْوِي لا من مؤسسته فقط بل من الوجود! أووف.. آه يا صباح! قد نسيتُ الاجتماع صدقاً لا عمداً، ويعلمُ الله أني كنتُ

مواظبا على اجتماعاتهم الماراطونية التي لا تقتل ذبابة ولا بَعوضة ولا تشفي مريضا! المهمّ لقد ضجرتُ من وجودي بينهم و من ذلّ الحضور..

ولكنني حينما رَسَا بصري على محياكِ الورديّ آنذاك، انطفأ المديرُ وهديرُه ورهطُه وضحكاتُهم وتندُّرُهم بي كما ينطفئ ضرسٌ مُوجع بِمُخدّرٍ مُنعِش.. ذاب وقتئذٍ المدير الذي لا يهدأ أمام هذا الذي يُذَوِّبُنِي، وتوارتْ هامتُه خلف رموشكِ، وتآكلتْ هامتي في محراب عينيْكِ..الحقيقة: أنا ..أأأأأنا..أنا..أنا.. يقولون:" لا تصح المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر: يا أنا" أنا..أنا يا أنا ..أريد أن أقول..أعني.. آه نسيتُ..دُونَكِ قلبي فهو وصيتي لكِ والناطقُ باسمي..المهمّ أحبّكِ حبّ الفقير للرغيف..هّا..هّا..هّا..فضحكتِ أنتِ كذلك.

لاَمَسَ نسيمُ الضحكات المتدفقة من شفتيْكِ عذْباً زُلالاً شِغافَ فؤادي، فَدُفِنْتُ فِيَّ وأنا مغمضُ العينين أردّدُ قول صاحبنا:

مُزِجَتْ روحُكَ بروحي كما*** تُمزَجُ الخمْرةُ بالماء الزُّلال

فإذا مَسَّكَ شيءٌ مَسَّنِي *** فإذا أنا أنتَ على كلّ حال

جئتُ من عندكِ وقتذاك..ودّعتُكِ ثم عُدتُ إلى المعهد أستحثُّ الدراجة العجوز على السّير .. آه..ما بكِ من جديد أيتها الشمطاء؟ ألا تَسْتَأْسِدِينَ عليّ إلا في الوقت الذي أحتاجُ فيه إلى رِئَتَيْكِ وصبركِ وتجلّدكِ؟ ألا ترحميني بالمضيّ بلا إبطاء..؟؟ توقفتِ اللعينةُ يا صباح هنيهةً، توقفتُ لأسترجعَ أنفاسي المُتْعبَة..عدتُ إلى مقبضِ المقود، أَدَرْتُهُ حتى فَركتُ يدي على طِلائه..عَرقتْ

يدي ..أخيرا تدفّقَ الدخانُ من الفوهة الخلفية للدراجة، انطلقتْ كفهدٍ مسعورٍ فاخترقتْ كبدَ الريح..وما إن بلغتُ مَدار الطريق السّيّار حتى أَفْجَعَنِي ما رأيتُ وهَالَنِي مَا أَلْفَيْتُ، لقد دَاسَتْ سيارةٌ رباعية الدفع قطةً صغيرة جميلة، وكانت السيارات تذهبُ وتجيء مثل وُحوش مجنونة مُستعجِلة لا تتوقف ولا تتريث لتلتقط أنفاسها كما فعلتْ دراجتي الآن.أسنَدْتُها إلى عمود الكهرباء، لأرى ما أصاب القطة، وكنتُ أحاولُ جاهداً أن أُبْعِدَهَا عن كبد الطريق حتى لا تتأذّى أكثر بما يمرُّ فوق جسدها النحيف، وحتى لا تُسْحَقَ كليّاً لكني عبثاً أحاول، لقد اضطررتُ أن أقفَ وسط الطريق مُلوّحاً - بِجُنُونِ المُلحّ- لكلّ السيارات بالوقوف حتى أستطيع حملها إلى جانب الطريق أو قرب عُشْبِ الحواشي، وقد حملتُها وعيناها دعجاوان كضفدع مشنوقٍ، سالَ الدمُ من فمها وانتفضتْ من حرّ سَكَرات الموت ..احتضرتْ فَاحتضرتُ لاحتضارِها..انتفضتْ قوائمُها في الفراغ.. يكفيها أنها فقدتْ أمعاءَها وأجزاءً من جسدها..واأسفاهُ! كانت يا صباح مثل حَمَلٍ وديعٍ مذبوحٍ بسكّين صدئةٍ، هدأ سُعارُ الموت على أطرافها المرتعشة، سَرَى في كلّها نَفَّدرها التخدير الأخير فاستكانتْ.أخذتُ جثتَها الحريريّةَ الفِراء فلَفَفْتُها وكَفَّنْتُهَا بوزرتي البيضاء، التي استغنيتُ عنها بعدما أيقنتُ وَوَطّنْتُ نفسي على أن العمل مع هؤلاء القَتَلَةِ يَقتلُ وقتي ولا يُجدي شيئاً، ثم دفنتُ المسكينةَ بجانب العشب.بكيتُ بحرارة ثم واصلتُ المسير بعد أن تأخرتُ أكثر مما يلزم عن موعد الاجتماع.

ضغطتُ على مِقودِ الدراجةِ العجوزِ الحبيبةِ/الملعونةِ، ثم تقيّأتُ أو نَفَثْتُ كُرْهِي على الدراجة، وأَوْدَعْتُهَا كل مَقْتِي وسآمتي، ولو كانت تسمعُ أو تَعْقِلُ لأَشْبعتُها ضربا ورفساً وبُصاقاً لعل فؤادي المحموم يهدأ من سُعاره..لكن ..اِمْضِي يا دراجة لا رَحِمَكِ الله، اِنْطَلِقِي رَاشِدَةً.. اِمْضِي وكيف لا تمضي والوقتُ من نار.. ، اِمْضِي في الطريق دون أن تلتفتي أو تتوقفي حتى يتوقفَ قلبُكِ الصدئ..

قطعتُ كيلومترين دون إبطاء أو تريُّث، فجأة صعقني شرطيّ المرور وهو مختبئ خلف شجرة بجانب الطريق، أشارَ إليّ بالتوقف، فلم أتوقفْ، بل فَارَ صدري والْتَهَبَ رأسي، فَشحذتُ مقودَ الدراجةِ بمزيد من الحقد والغلّ الذي أراهُ يخرج من فوّاهةِ الدراجة وتَنفُثُهُ مع الدخان، ظننتُ الشرطيّ هو المدير الذي ينتظرني، فسابقتُ الرياح لأبلغ المعهد قبل أن يزداد زئيرُ المدير فيصلني من مكان اجتماعه..

آه..لعله قد بلغني الآن ..اِعذرْني أيها الشرطيّ فأنا مما لا ريب فيه من عشاقِ القانون والأضواء الثلاثة، لكن ما حيلتي: زئيرُ السيد المدير لا يُبقي ولا يَذر، أما أنتَ فَلَكَ أن تُوقِفَ غيري ممن هُمْ أضلُّ مني أو أهدى سبيلا..!

دخلتُ إلى صالون الاجتماع وقد انطفأتْ في ثغري كل ابتسامة.السقفُ من فوقي مرصّعٌ بنقوش مغربية تُغري الناظر وتسحره سحراً غامضاً، تتدلى منه مصابيح مُذهلة الصّنع، النوافذُ من حولنا كأنها عيونٌ متربصة بالمجتمعين، وأنا بذبولي أشمخُ في نفسي، ولا أهتم بأي ابن أنثى يظنُّ نفسهُ حينها مُهِمّاً بيننا وفي

سِدرة الأهمية، فكيف برجلٍ يقول عني إني نعجة؟ النعجةُ يا....؟؟ هل أنا نعجة يا أختَها؟ هل أبدو نعجة كما قال يا صباح؟؟ قولي لي هل أبدو كذلك..؟! لعلي أتخفّفُ مني وأرضى بنعجيّتي وعَنْزِيّتي..

كان المدير يأخذ بنواصي الكلمات.. يمضي مسرعا في عرض ما يقول..فجأة وبلا مناسبة توقف وأشار إليَّ:

- هذا محمود المتأخر دائما..له شهادة الدكتوراة في التأخر وخلق الأعذار..!

التفتتِ العيونُ كلها نحوي، استمَرّ سَيّدُهُم المدير في وقاحته، قال لي شامتا:

- قدْ بعَثْنَا إليكَ لنكلّمَكَ فلم تكلمنا، ثم جاءكَ كلامي في الهاتف، فما الذي أبطأَكَ عنا أيها الدكتور؟
- قطةٌ مسكينة لقيَتْ حذفها في الطريق، فأشفقتُ عليها..هذا كلُّ ما في الأمر؟
- جميل! لم أعلمْ أنك رومانسيّ إلى هذا الحد؟
- وها أنتَ الآن قد علمتَ.. وماذا بَعْدُ؟

توقفتُ عن الكلام لأن الدموع تدفّقتْ من حلقي وتدحرجتْ على خدي، فقال المدير مقهقهاً:

- ولماذا تبكي كالنساء ها..ها..ها..؟

ضجّتِ القاعة بالضحك والشماتة، لم أعلم من أين زَحَفَتْ عليّ شجاعةٌ طارئةٌ، فجاء الرد مناسبا ومتناسقا:

- أبكي ليس خوفا منك ولا مما تقول لأن كلامكَ عندي لا وزن له، وإنما أبكي شفقةً على براءتك وتحمّسِكَ الأرعن للظهور بمظهر الأسد أمام أسيادِكَ الحاضرين..أَفَهِمْتَ قوْلي أيها العجوز؟
- لا أسمح لك..!
- تسمحُ أو لا تسمحُ، هذا يَعْنِيكَ أنت، لا تظنّ أنك إله، ولا تظنّ أن الإنسان بلسانه وريشه المنتفخ، وإنما بِـ..
- اِلْزَمْ حدودك..لقد تطاولتَ واعتديْتَ..!
- وأيّ تطاولٍ أبْشَعُ من "النعجة" و"الدكتور" و"بكاء النساء" وخرقِ ثوبِ الكرامة..؟
- **Animaaaal..!**
- لن تخيفني بفرنسويتِكَ الركيكة هذه/فرنسويةِ الفايسبوك والرسائل الهاتفية القصيرة..يَلْزَمُكَ أن تقرأ هيجو لتصلح لسانَكَ الفرنسي وتُقَوِّمَهُ..لقد أَقَمْتَ الدليل أمام أسيادك على سذاجتك...
- لن أصبر على ما أسمع! اُخْرُجْ من معهدي هيّا اِصْدَعْ بأمري..
- ما أنا بفاعل ولو أطبقتِ السماءُ على الأرض حتى أشاءَ،حينها أَخْرُجُ من هذا القبر إلى قبر آخر..
- سَأُقَاضِيكَ إن لم تكفّ عنا هذه الصفاقة..

انفجرتُ بالضحك لهذا الكلام، فقلتُ له:

- سأعينُكَ على وضع الأغلال في يدي إن شئتَ، لقد أَلِفْتُ السجنَ في الرباط مع المعطلين أمام البرلمان، والسِّجْنُ هو عشّي الطبيعي..عشُّ النسر..

لم يتمالكْ سيدُهُم المدير نفسَه فتقدّم للعراك، فَلَمْ أَأْلُ جُهْداً في نِزالي معه، فأمسكتُه من موضع الياقة في عنقه، وغرستُ لكمةً بديعةً ولذيذةً في جبهته، ثم أخرى في بطنه، وأخرى في فوهةِ فِمِه وأنا في ذروة الانتعاش والتلذذ..فضربتُ وضربتُ حتى كادت تخلعُ ذراعي، لقد سكبتُ كل حقدي في لِحاءِ جسده الذابل، وسالَ غضبي كما شِيءَ له أن يَسيل، ولم أغادر منه صغيرةً وكبيرة حتى صببْتُه سخاماً من قلبي، وَوَطّنْتُ نفسي على أني أفتحُ الأندلس وأسترد حصون طليطلة وغرناطة من ألفونسو، فخاصمتُ وفَاجَرْتُ بيدي ورجلي وقلبي وكُلِّي..ثم صعدتُ إلى منصة المُحَاضِرِين، فصحتُ في مكبّر الصوت الذي انتزعتُه من مسيّر الاجتماع:

- أيها الناسُ ..أبْشِروا يا أيها المدراء والأساتذة الحاضرون..هذا مُديرُكُمْ هو أكذبُ منْ دَبَّ ودَرَجَ..هذا الرجل قد بلغَ من الكِبْرِ والجور عتيّا وقلبي لم يصبر عليه فرأيتم ما رأيتم، وإن الكرامة عندنا كالماء لا نصبرُ عليها .. وأنا لستُ بالرجل الذي يهربُ من قَدَرِه..وهذه يدي نادوا على الشرطة واجعلوها في الحديد..

ولما استوفيتُ ما يعتمل في صدري وجدتُني في قبضة رجال الأمن الخاص، وأيديهم تمتدُّ إليّ مثل الأغصان الشريرة في الحكايات والأساطير القديمة، فدفعوني إلى سيارة الأمن الوطني فعدتُ إلى الكوميسارية وأنا لا أهدأ من الضحك والصّفع الذي ينهالُ عليّ من طرف عميدِ الشرطة صديقِ المدير...

****

كان يوما عبوساً قمطريراً و.. كذلك عَذْباً..أليسَ كذلك أيتها المُدهشَة..؟؟ أعرفُ أنّ ما أسردُهُ عليكِ أشبهُ بعويلِ كَمَنْجَات، ولكن على كل حال سأتوقفُ هنا، ولعلي أكونُ قد وَفَّيْتُ بما طلبتِ مني، هَا قَدْ أَوْغلَ الليلُ وقد أدركَني التعب، فكانَ لِزاماً عليّ أن أستريح..ولكن قبل أن أنصرف عنكِ، أقولُ لكِ كما العادة: طابَ جوعُنا تصبحين على شَبَعٍ..

محمود

جواب الرسالة رقم (٦)

عجيب! أنتَ لا تَتَغَيَّر..صَدَّقْتَ أنكَ أَصْبَحْتَ راشداً ولَمَّا تَزَلْ بَعْدُ في حماقاتِكَ بفعلِكَ البَشِع هذا مع المدير..!

آه ..صحيح.ما تَسْرُدُهُ عليّ أشبهُ بعويلِ كمنجاتٍ وَعِيدَانٍ، وذاكرتُكَ ذاكرةُ فِيلٍ إفريقيّ، ولعلكَ تكونُ قد وَفَّيْتَ ببعض ما طلبتُ منكَ، ولكن على كل حال ما كان عليكَ أن تتوقفَ هنا.ولكن قبل أن تنصرف عني، فأنا كما تعلمُ مريضةٌ بِهَوَسِ التوحّد بحريق حُبّك، فَلِمَ لا تستمرُّ في إشعالِ فُرْنِ القلوب؟.. آه..ربما الأفضلُ أن تُرْجِئَهُ حتى حين..

على فكرة أنتَ تتضايقُ دائما من التحدث عن المدرسة الخاصة التي كنتَ فيها مُنذُ زمنٍ، ما بالُ "نُهيلة" التلميذة النجيبة في القسم السادس ابتدائي، التي لطالما أخبرْتَنِي بذكائها؟ ..ربما كنتُ كأيّ امرأة أغارُ منها حتى ولو كانت طفلة، ولكن أنتَ لم تحدّثني عنها!

صباح

الرسالة رقم (٧)

آه..أَجَلْ. إنها هي نُهيلة!

التلميذةُ النجيبة في القسم السادس ابتدائي، التي لطالما أخبرتُكِ بذكائها؟ ماذا سأقول يا صباح..؟ كان ذلك قبل سنة عجفاء، قبل أن ألتحقَ بالمعهد الخاص لتدريس التواصل المَشؤُوم فيه، وقبل أن أحدثَكِ عن نهيلة سأخبرُكِ بما مَرَّ بي ولَمْ أُخبرْكِ حينئذٍ به في تلك المدرسة الخاصة:

في صباح يوم السبت كما تعلمين، يحضرُ آباءُ وأمهاتُ التلاميذ فيسألوننا عن فلذات أكبادهم، وعن دراستهم ونُقطِهِم، قالت امرأة غارقةً في عطرٍ فرنسيّ وأحمرِ شفاهٍ لا يناسبُها:

- أستاذ! أريدُ منك أن تجعل من ابني -هو ابني الوحيد وقرّة عيني- سِيبَوَيْهاً يهضمُ كل قواعد اللغة، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة في النحو والصرف إلا استوعَبَها ..
- إن شاء الله سيكونُ جاهزاً ليصبح كما تَطلُبِين..فَقَرّي عيْناً سيدتي..

التفتْتُ إلى ولدها الوحيد على حين غفلة منها،لأنها كانت تائهة في مكالمة هاتفية، فلَوَيْتُ عنقَه مُتظاهراً باللعبِ معه وأنا جادٌّ في ما أفعل.قلتُ له ناهراً:

- سيبويه لا يحصلُ على ثلاث نقط فقط في الواجب المحروس..تَعِي هذا أليسَ كذلك؟

يعلمُ اللهُ يا صباح أن ولدَها الوحيد هذا لا يتجاوز النقطتَيْنِ أو الثلاث في التقويم والفروض المحروسة، والإدارةُ كالسوط من فوقنا تأمرُنا أمراً عسكرياً بتسمينِ النقط وإرْبائِها.

كذلك قالتْ لأستاذ الرياضيات:

- أريدُ منكَ يا أستاذ أن تجعل من ولدي نسخةً لإينشتايْن..

وكذلك قالتْ لأستاذ الموسيقى والرسم:

- أريد يا أستاذ أن يكون ولدي بيتهوفن و سالفادور دالي..

وكذلك لأستاذ المسرح أن يصبح شكسبير.. وكذلك.. وكذلك قالت لأساتذة آخرين..

لَمْ تَلْقَ مني بعد ذهابِها غير ابتسامة ساخرة تليقُ بسذاجتها الصارخة وسماجتها وكلامها المتعالي، عموماً لقدْ سعدتُ بمعرفة هذه السيدة، أتعرفين لماذا؟ لأنها دَعَتْنِي ضيفاً عندها لتناول وجبة الغذاء على شرف ابنِها "سيبويه الصغير"!، وصلْنا إلى قصرها، فلما أَنْ خرجتُ من سيارتها الفارهة، حاولتُ أن أختار ابتسامتي لتليق بموقف المجاملة والشكر، دخلْنا إلى الفيللاّ الضخمة فَهَالَنِي ما رأيتُ، وسألتُ اللهَ حينها أن يكون ما أنا مُقبلٌ عليه من طعام حُلْماً، فتذكَّرتُ وقتَهَا جُحْري/بيْتي هناك، وتذكرتُ قول القائل وهو يُلحُّ على ذاكرتي إلحاحاً:

ليسَ إغلاقي لِبابِي أنّ لِي *** فيهِ ما أخشى عليهِ السّرِقَا
وإنما أُغلقُهُ كَيْ لا يَرى *** سوءَ حالي مَنْ يَجُوبُ الطُّرُقَا
منزِلٌ أَوْطَنَهُ الفقرُ فَلَوْ *** دخلَ إليهِ السارقُ سُرِقَا

الأشجارُ في مدخل الفيلا على هيأةِ النوارس، وعلى طول الممرّ المفضي إلى الداخل سَجّادٌ تُرُكِيٌّ لَمْ أرَ مثلهُ حتى في الأحلام، وبجانبيْهِ عشبٌ بديع كأنه بساطٌ أخضر، وفي الجانب الآخر مسبحٌ عظيم يحيط به العشب من كل جانب، وعلى رأسهِ مباشرة بابٌ مُذهِل به ألواحٌ زجاجيّة كلُّها مرايا قد توقفتُ لحظةً أمامها -كالبدوي الذي يرى المدينة لأول مرة في حياته-لأرى فيها عُرْيِي في نفسي وذبولي وسذاجَتِي، توغّلنا إلى الداخل والعطرُ الفرنسيّ يغمرُ أنفاسي بلذة مُنعِشَة، وممرُّ الدهليز كلُّهُ رُخامٌ فضيّ أرى فيه قامتي المسمارية وهي تطل عليّ من تحت قدميّ، قلتُ في نفسي حينها: "إذا كانت الجنة مثل ما أراهُ فَعَلَيَّ أن أدمن على الصلوات الخمس لأنعم بمثلها" كم كنتُ ساذجا يا صباح لأني لم أَكُنْ أعلمُ ما حولي!

جلَسْنا على أرائك وردية بديعة، ثم تقدَّمَتْ خادمةٌ ممشوقة القدّ لتضع الطعام على مائدة لا سبيل إلى وصفها، في صالونٍ لم أرَ مثله وربما لن أرى مثله..وُضِعَ الطعامُ بألوانه وأشكاله وروائحِهِ التي لا تُقاوَم فَلَمْ أعرفْ -ويالَضآلتي وسخافَتِي! - بِمَ يُؤكَلُ:أَبِالخبزِ أَمْ بالسكين أم باللّعْق أم بالشّرْب أم بالنّظَرِ إليهِ فقط؟ انتظرتُ ريثما أرى كيف يَصْنَعُ ولدُ السيدة، ففعلتُ مثلَهُ..طافتْ بيننا كلماتُ المجاملة والتصنع والأبُ خارج الوطن في مهمةِ عملٍ في كندا كما قالتْ..سألتْني عن بلدتي ومسقط رأسي، فأخبرتُها عن تمكروت بزاكورة وناسِها وتَمْرِها ونخيلها وشمسِها، فقالتْ بنبرة لا تخلو من أنَفةٍ وصفاقةٍ وسَمَاجَةٍ:

- زاكورة؟ موقعُها على الخريطة في الغرب أليس كذلك..؟

- معذرةً سيدتي، إنها في جنوب المغرب لا في غربه..
- يقولون إن الناس يدفنون أنفسهم تحت رمالها الحارقة..
- ليسَ في زاكورة، ولكن في مرزوكة..
- أليستْ مرزوكة منطقةً في زاكورة؟ هي في زاكورة فيما أعتقد.

قلتُ في نفسي بضجرٍ كاد ينفجر في وجهها البضّ:

- لا.هي منطقةٌ في كندا حيثُ زوجُكِ الآن..!

ثم قلتُ لها في سأمٍ شديدٍ، وبصوتٍ كصوتِ شاحنةٍ تفرغ كثباناً من الصخور:

- مرزوكة في تافيلالت قرب الريصاني، وفيها الناس يدفنون أنفسهم تحت رمالها الحارقة ليستطبوا..

وَدّعتْني وقدْ هَدَأَتْ أمعائي من زغردتها أخيراً، وقَضَتْ بطني وَطَرَهَا من كل الأطباق:

- أتمنى أن تكرر زيارتَكَ لنا يا أستاذ، بعد أسبوعيْن ستكونُ مَدْعُوّاً عندنا لحفلٍ باذخ..
- حفل باذخ؟؟ ماذا عساهُ يكونُ يا سيدتي؟
- عيدُ ميلادِ قِطّةِ ابني نوفل..
- ما اسمُ القطة يا سيدتي؟
- اختارَ لها ولدي اسمَ سُوسُو.
- سُوسُو؟؟ اسمٌ جميل.. اللهْ اِسْخَّرْ..

هل سمعتِ هذا يا صباح؟ عيدُ ميلادِ قطةِ ابنها نوفل..؟ عيد ميلاد سُوسُو؟..سُوسُو يا سُوسُووو ما أحلاها..! أتمنى ألا تَسْمَعِي.. ولكنني رغم دهشتي فقد حضرتُ حفل الميلاد، وتعرفتُ على سُوسُو وعلى أنواع شتى من حلويات ومشروبات لم أعرفها في عُمري، ولما ملأتُ بطني استأذنتُ بالخروج وقد مَلَأَّتِ السيدةُ- بَارَكَ اللهُ لها في "سُوسُو" وَلَدِهَا- يديّ وجَيْبِي بحلويات ما ألذّها حين أطعمتُ بها جميع مَنْ يسكنُ بجانبي في البيوت الأخرى، مِنْ طلَبَةٍ وعمّال وخادمات في الضِّيَاع والبيوت بأيت ملول!

هذا عن نوفل، أمّا نُهيلَة، فآهٍ مِنْ نهيلة! فقدْ كانتْ كلُّ مَسَامِيّ تبرز على سطح الجلد، تنتظر بشغف ولهفة دخول اللطافة ذاتِها التي خُلقتِ منها لتَمُسّها بقليل منها، في كل يوم ألقاها أُسارِعُ بجنون الأَلقِ الجميل- الذي يُطالِعُ كل راءٍ يُرسي بارتياح بصرَه فيه- حتى يتلاشى ويفلتُ مني على حين غفلة.

نُهيلَة؟؟

رَكِبَنِي شعورٌ بالانتهاء والكآبة حالما شخصتْ نظراتي الحزينة في إشراق براءتها، آه ..!! ستُغادريننا كدأبكِ إلى عالمكِ الخاص يا نُهيلة.لماذا- وأنتِ تقتحمين صخور الهواء بأرجوحتك الصغيرة- لا تخترقين قسوة اللحظة التي نحن فيها؟ أنا وأنتِ سنطلُّ على الكآبة من كوة الزمن، لنسحق بلا رحمة أصول هذه الكآبة !!

- نهيلة .. يا نهيلة .. !
- نَعَمْ يا أستاذ.

طاف صوتُها الناعم بداخلي مكسرا أصفاد قلبي، فاستبدّ باحتراقه عند مفترق الأحزان.أخيرا هدأ أنينُه:

- هل أُوقِفُ الأرجوحة؟
- لا .. خلّيها.
- ستسقُطين من حدة الصعود والنزول !
- اِحْذَرْ أن تسقط أنت يا أستاذ.
- مماذا ؟؟
- .. الأرجوحاتُ كثيرة!

قلتُ لها يا صباح ذاتَ مرّة باسماً بصدقٍ واعترافٍ بالضآلة أمام قدّها الصغير:

- أنا الآن أستاذُكِ، وذات يوم سأخفض رأسي بين يديْكِ لآخذ عنكِ صامتا كل الذي تقولين.

لم تنبسْ ببنتِ شفة، لأن الكلام كان يكبرُها، لكن صدقيني يا صباح: إن قلمي العادل يفرّ مني ويتبرأ أحيانا من عدله، إن سقطتْ في يدي ورقة الاختبار، أصارعُ الرغبة المختلطة بالصرامة والجدية والضمير ، أَنْطَفِئُ داخل حيرتي .. أتردد لكن في آخر الاضطراب أضع عشرة على عشرة.

تشرئب أعناقُ الأطفال من تحت جبلٍ من الأوراق المزدوجة، تقوم قيامةٌ صغرى عند قلوبهم، تبلغ القلوبُ الحناجر، تُطِلُّ منهم النظرات البريئة، وربما القلوب المرتجفة: الخوفُ من الصعق عند رهطٍ، والسَّكينة والاطمئنان عند ثُلّةٍ،

يتزاحم كل شيء أمام هيبتي التي تبدو لهم باسقة قبالة السبورة،وفوق لبنة ترتفع شبرا على مستوى أقدامهم الخائفة .. ثم يأتي الخبر اليقين بانتشاء:

- مَرحى .. مَرحى .. النقطة الأولى دائما وأبدا تحصدُها نهيلة.

يعلو الحقد والابتسامُ المصطنع والحَنَقُ والتهاني .. تتزاحم النظرات على الأوراق، ماذا دهى أستاذَنا؟ إنه لا يعرف غير نهيلة ! ألا يوجد غيرها؟

لا تهمُّني تأفُّفَاتُهُمْ ولا تأوُّهَاتُهُمْ، أرأيتِ يا نهيلة، لا أرى في ما أرى إلا أنت، أُعابُ وأُلامُ ورغم كل شيء أعود إليك، لأنكِ من عالم آخر غير عالمك.

- مهما اختلفتِ الأرجوحات تتفقُ كلها في الصعود والهبوط.
- هل أنتَ يا أستاذ صاعد أم هابط؟

يصفعني السؤال، أحس بالهزيمة كَرّةً أخرى، فأفرّ من السؤال مُكرهاً تحت لفح الظهيرة وقتئذٍ:

- ما بالُ وجنتيْك حمراوَيْن؟ هل لفحتْهُمَا هذه الشمس الحارقة؟
- الورود لا تسأل عن شيء كهذا !
- ولماذا؟
- أنتَ دائما يا أستاذ – وحتى في الفصل- تسأل بلماذا لتهربَ من شيء ما في نفسك !

هذه المرة سقط قلبي في هاوية عميقة أيما عمق، ابتسمتْ ببراءة، ابتسمتُ ابتسامة باهتة،-وأنا سارحٌ بخيالي في صورة تذكارية موضوعة الآن داخلَ كتاب- وقالتْ شفتاي وكأنهما لَيْسَتَا لي:

- أرجو أن تَظَلّي ضاحكةً إلى الأبد برغم أرجوحات الزمن.

كانت نهيلة تلازم خيالي دائما، ربما لأني أرى فيها ابنتي التي لم تُولد بَعْدُ ولن تُولَد..

***

أتمنى ألا تأخذكِ الغيرةُ مأخذاً عظيماً في حقّ طفلةٍ في عُمْرِ ابنتكِ، إنها مجرد طفلة. تلميذة سَبَقَتْ زمانَهَا يا صباح..هذا لا يهمّ الآن..الذي يَهُمُّ هو: طاب جوعنا..

محمود

جواب الرسالة رقم (٧)

طابَ يومُكَ يا عزيزي،

لقد داهمتْني الغيرةُ وأنتَ تحكي لي عن "نُهيلَة"، ولكنها غيرةٌ لا تثريب عليها، آه نسيتُ..أخبرتَني أن السيدة والدة الطفل نوفل لم تعرف بلدتَكَ في جنوب المغرب، ماذا عنها يا محمود؟ أنتَ لم تقلْ لي عنكَ فيهاَ، وعن موقعها وأسرتك شيئاً، عهدتُكَ لا تفرّطُ في ما يربطُكَ بأصلك، أمْ أنكَ لمْ تَعُدْ كما كُنتَ فرساً تختالُ براكبِها؟

اِحكِ يا محمود الجائع لتغتسِلَ منكَ ومن باطنِك..اِحْكِ أيها الحصانُ المُنهَك..!

صباح

الرسالة رقم (٨)

بلدتي"تَمْكْرُوتْ"..!؟"تَمْكْرُوتْ"..يا "تَمْكْرُوتْ"..؟؟

آه..جبينُها يحضُرُني الآن مُقطَّباً، وتبدو كدأبها عاريةً أمام العدَم والعراء والجبال، غارقةً في أوتادٍ متراصّةٍ من النخيل الحالِم يَعصمُها من النسيان، صارخةً في كبد الرياح والحصى والرمال.. تذكرتُها وهي دوما كنخلة يتيمة تئنُّ بين جناحيْ صحراء زاكورة.. وتذكرتُ بشيء من الأسى المُضْحِك عمي الشيخ حمّو الأعرج، كان عاملا بسيطا في الجزائر لدى شركة فرنسية في الثمانينات، قيل إنه ذهب إلى الجزائر ماشيا على قدميْه-أيْ نَعَمْ يا صباح:ماشياً على قدميْه من تمكروت إلى وهران- فلما عاد إلى تمكروت لم يمكثْ فيها يوما واحداً، بل تسلّلَ من الدار لحظةَ وصولِه، وسافرَ في تلك الليلة المقطَّبة الجبين على متن حافلة متهرئة إلى زاكورة، متعللا بشراء بقَرة ليحتفلَ بها أهلُ الدار وبقدومِه من الجزائر..بَلَغَ زاكورة في ذاتِ اليوم القائظ، فانتظرتِ العائلةُ عودتَه بشوق جارف، وعيونٍ ذاهلة يكحّلها السّهاد:

- سيعود ابني فنحتفلُ به مرتيْن.
- لماذا آثَرَ السفرَ في ذاتِ اليوم الذي جاء فيه من السّفر؟
- ربما عاد من الجزائر بخفّيْ حُنَيْن!
- هذا صحيح.. كانت حقيبتُه خفيفةً قد رفعتُها لأتحسسَ ما فيها..
- عودتُه عودةٌ للروح التي فارقتْ جذوعَنا الخاوية..

- رسائلُه تصل أحيانا وأحيانا لا تصل..
- عشرون سنة في الجزائر؟؟
- دهرٌ ظالم ..تُرى هل اشتاق إلى زاكورة أكثر من تمكروت فَقفلَ إليها لِتَوِّه؟
- يقول إنه سيأتينا بعجلٍ حنيذٍ من زاكورة..
- هو لم يَقُلْ عِجْلاً بل بقرة..
- العِجلُ والبقرة سِيان..
- العِجلُ أفضل من البقرة.
- لا بل البقرة..
- بل العجل..
- العجلُ لا ينتج الحليب..
- لا أريدُ بقرة ولا حتى دجاجة، أريد عينيْه أتملاّهما.
- متى سيعود..؟
- لا محالة غداً.
- آه ..ليتَه لم يسافر، كنتُ راغبة في احتضانه لعشرين سنة لو بقيتْ في العمر..

عاد عمي بالبقرة، لكنها ليست البقرةَ التي تعرفينها يا صباح، بل هي بقرةٌ اسمُها مليكة، امرأةٌ ضخمة جداً جاء بها إلى الدار الكبيرة، فلم يدعْ أعينَنَا وقلوبَنا

تستيقظُ من غمرة الذهول وهول الصدمة، بل لقد أمسكَ بيدها وأخرسَ الأفواه بعبارة واحدة:

- مليكة..زوجتي، وقد سَوّيْنا أمور العقْدِ مع القاضي قبل ساعة..

قال أخي متسائلا ببراءة وهو لَمّا يزلْ طفلاً:

- هل هذه هي الـ...
- نَعَمْ هي.اُصْمُتْ وإلا أمرتُها أن تُدخل قرنَيْها في فِكَ الثرثار فيَظلَّ فَمُكَ كهفاً بلا أسنان..
- حسناً سأصمُتُ.. !

تزوَّجَها عمّي، ثم ما لبثَ أن طلّقَها بعد شهر، إثرَ صراعها مع نساء "القصر"،لم تكن تعرف هدنة أو سلاماً، تحشرُ أنفها وأذنها في كل شيء، لتصل إلى كل شيء، قيلَ إنها كانتْ مجنونة قولاً وفعلاً، تُدخلُ وجهها في كيس الطحين، ثم تخرجه ضاحكةً وقد ابيضّ مثل قطة تمرغُ وجهها في التراب، ثم تُقهقهُ بلا مناسبة، ولمّا أراد عمي حمّو تطليقها جمعتْ ملابسها في رزمة، ثم تمزّقَتِ الرزمة فسقطتْ منها جواهر نساء "القصر" المسروقة وذَهَبُهُنّ، فارتفع النحيب وعلا الصراخ، لم يستسغْ عمي ذلك، فجرّدَها من كل شيء وقذفَ بها إلى الخارج كما ولدتْها أمها..

إيهْ يا صباح ..عمي حمّو! تزوَّجَ للمرة العاشرة، ثم عُثِرَ عليه جثةً متفحمةً بجانب حماره في الإسطبل وسط أكوام من التبن المحترقة..! ماتَ عمي ودُفنَ إلى جانب حماره، لأنه أَوْصَى بذلك، ولما انفرطَ الجمْعُ من المقبرة وظلّ عمي وحيداً

في بياضِه، توقفتُ لحظةً عند بابِ المقبرة ثم التفتْتُ إليه، فلما ألقيتُ على قبره آخر نظرة رأيتُ شخصاً غريباً يقفُ عند شاهدة قبره الحجريّة، فعُدْتُ لأرى ما الأمر، فَغَاصَتْ قدمي بين القبور والأشواك والأحجار التي تَكَدَّسَتْ بها المقبرة، فلمَّا دَنوتُ منه وَجَدْتُهُ يبولُ على قَبْرِ عمي، فَعَقَدَتِ الدهشةُ لساني، أردتُ أن أقول له:"وَيْحَكَ ماذا تفعل؟ وَيْلَ أمّكَ ماذا تصنع؟" لكنّ الكلام تجمّدَ في حلقي، وأَشَرْتُ فقط بيدي إليه مُستنكراً دون أنْ أَنْبِسَ، فقال عنه مُزمجِراً دون مقدمات:

- اللعين، أَقْرَضْتُهُ مالاً كثيراً ليشتري الحشيش ولكنه ماتَ قبل أن يؤدي ما عليه..!

لَمْ أَقُلْ شيئاً لأني لا أستطيع، لَمْ أَجِدْ ما أقوله سوى استئناف البكاء الصامت، وسَكْبِ دَلْوٍ من الماء على التراب الذي بَلَّلَهُ هذا البغل، ثم الْتَحَقْتُ -عائدا- بالرَّكْبِ الذي دَفَنَ عمي، وبعدها اقترضتُ ما أؤدي به ما عليه فسلمتُه إياه..

أمّا أبي فقد عملَ في الدار البيضاء قبل أن يلزم تمكروت حتى رحيله الأبديّ، وكان يترنّحُ من السُّكْرِ في كل مرة يدخل فيها إلى كارْياننا في "السكويلة" وبعدها في تمكروت، تزوّجَ أمي منذ أمدٍ وهي شيخةٌ معروفة تعرَّفَ عليها صدفة-كما حكى لي صديقُ والدي- في إحدى خمّاراتِ عين الذياب وكان حارساً ليليّاً فيها، ثم جِئْتُ مِنهُما مُثْقَلاً بهما، هل تعلمين أين وُلِدتُ يا صباح؟ لقد

وُلِدْتُ في السّجن. ولماذا السّجن؟ لأن أمي قد هَشَّمَتْ رأسَ مُوَظّفٍ رفيع ذاتَ ليلٍ أحمر في إحدى الكاباريهات حتى كادتْ تحصدُ رأسَه وتَذْهَبُ بِرُوحِهِ! ولماذا هَشَّمَتْ رأسَهُ وكَادَتْ تحصدُ رأسَه وتذهبُ بروحه؟ لأنهُ لم يَدْفَعْ..وماذا لم يَدْفَعْ يا صباح..؟ الله أعلم..أووووف! اِبْتَسِمِي يا صباح لأن أمّكِ الإسبانية سيدةٌ لامعة تملك الدور والنواصي في مراكش وأباكِ رجل أعمال لامع، وأنتِ نَعَمْ أنتِ أعلمُ مني بأنتِ، أما أبي فقد انتهى به الحال إسكافيا في تمكروت، والعجيبُ في شأن أمي-شيخة "لاَفْوَارْ"القادمة من الدار البيضاء- أن قلبها- بِزَعْمِها- يعضُّ على حُبِّ أبي بالنواجذ، ولا يتسللُ إليه أحدٌ من رجال الدنيا، وليس فيه أحدٌ من العالمين إلاّه حتى هذا الموظف الرفيع/الوضيع! وكلما تشاجرتُ معها لتلزمَ الكاريان تُسْكِتُنِي بعبارتها التي أصبحتْ وِرْداً يوميا:"لَوْلاَ رِدْفِي الرَّجْرَاج وخاصرتي العجيبة ما أَكَلْتَ الخبزَ يا معتوه..!"أَنْدَثِرُ في عاصفةٍ من الضحك، ثم أُجهشُ بالبكاء في صمت،ثم أُشَيّعُ جسدَها الذي أصبح نحيفاً بنظرات شزراء، ثم أذوبُ في الصمت وأتصبّر لأن الرسول الكريم عليه السلام قال:(..أمّك ثلاث مرات، ثم في الرابعة قال: أبوك)..

ماتَ أبي في تمكروت يوم الجمعة وهو في الركعة الثانية جالسٌ للتشّهد، لَمْ أَكُنْ حاضراً لحظة موته، قال الذين شهدوا موته إنه كاد يُسَلّمُ لكنه سلّمَ على مَلَكِ الموت، فريقٌ يجزمُ أنه لا محالة من أصحاب الجنة لأن آخرَ كلامه هو"لا إله إلا الله"، وفريق قال إنه ذكرَ الشطر الثاني من الشهادة فقط"محمد رسول الله"، وغفل عن الشطر الأول فَأَمْرُهُ إلى الله.. طلبتُ من المدير في أكادير أن أحضر

جنازة أبي، قدّمتُ له ورقة الإذن بالغياب لكنه رفض، هدّدني، لكنني سافرتُ لحضور الجنازة، اقترضتُ المال الكثير من الأقارب والجيران لتجهيز جنازة أبي.. كانت الشمسُ مُتثائِبة خلف أعناق النخيل، فَدُفِنَ أبي حينها إلى جانب فتاة كنتُ أحبها منذ أمدٍ..

..عدتُ إلى التَّنُورِ في أكادير، فلما مثلتُ أمامه طلب مني أن أوقّع استقالتي، ففعلتُ بلا تردد لأتخفّف منه ومن أمثاله، قلتُ له مودّعاً دون أن ألتفتَ إليه:

- اِستمتعْ بظُلْمكَ يا...إنّ إلى ربكَ الرّجعى يا..أسألُ الله أن يسلط عليكَ مَنْ هُوَ أظلمُ منكَ..!

لقد طردوني من العمل يا صباح..طردوني دون أن أتوصّل بأجري لمدة سنةٍ كاملةٍ بِلَحْمِهَا وشحمِها وعظْمِها وعرَقها..تخيَّلِي..ولوْ ريالاً واحداً! وحتى جاري إبراهيم الذي وعدتُه بالمائة درهم لم أسلّمها له..آه..أخذوني لَحْماً طازجاً ورَمَوْنِي رميماً، سطَوْا على جَبَلٍ من المال في صمتٍ عذْبٍ وقد كنتُ أفقرَ الناسِ إليها لأردها إلى أصحابها ..لقد سئمْتُهم جميعاً.. فلتذهبوا جميعاً إلى الجحيم يا حُفنةَ اللحم الْقَذِرَة..يا....!

لما وَجَدْتُنِي وحيداً في الشارع، شيّعتُ المعهدَ وخيالَهُ بنظرات حزينة، أحسستُ بإحساسِ الإحباطِ الممزوجِ بفَرحِ السّجين المظلوم الذي أُفرِجَ عنه..لم أَبْكِ يا صباح لأن هذا من تخصُّصِكِ، بل لقد اشتغلتُ نادلاً في مقهى، عَرَضَ عليّ ربُّ المقهى فيما بعدُ لما جرّبني أن أعملَ مغنيا في مرقصٍ ليليّ راقٍ لكنني

رفضتُ، لا لأني لا أتقنُ الغناء بل لأني لا أطيقُ أن أغني للحاج والمدير في ذاتِ الكاباريه الذي يترددان عليه، وأسري عنهما وأهدهدَ خواطرَهُما وأُذْهِبَ عنهما الهموم وَهُمَا سبَبُ هَمّي وكَمَدِي..آه يا صباح ما أشقاني بهما! تْصْوْرِي مْعَايَا عملتُ بعد طردي من المعهد نادلاً سجيناً في مقهى "كوكب الحرية"، وكُنْتُ أُحَضّرُ فَنَاجِينَ القهوة وطلبات الزبائن مثل نحلة رشيقة، فلا أبرحُ طاولة في البهو حتى تجدني قد فرغتُ من تنظيف أخرى عند مدخل المقهى، وأخرى وأخرى في الطابق العلوي.. وهكذا دواليك حتى ضُربَ بي المثل في ذلك، لكن ذاتَ يومٍ فوجئتُ بقرار صاحب المقهى وهو يهوي عليّ كَيَدِ الثَّاقبة الحفّارة (البُوكْلاَنْ):

- جيهان، النادلة الجديدة..
- ولكن سيدي..؟

أشار بِحُبُورٍ إلى جيهان الممشوقة القدّ والعظيمة الردفين والنهدين،ثم قلتُ وقد نطقتُ بآخرِ قطرةِ دهشةٍ وذُهولٍ:

- ولكن لماذا تطردني يا سيدي وأنا الذي تعلمُ مِنْ أمري ما تعلم..؟
- أنتَ لا تملكُ ردفيْن كاللّذيْن تملكُهما جيهان.
- وهل العمل الخالص يُقاسُ بهذا؟
- نَعَم، وبالنهديْنِ النافريْن أيضاً، أنتَ أشبهُ بفزّاعة في هذه المقهى..!

قلتُ له بنبرة الاستنكار والسخرية وأغنية "وْقْتَاشْ تْغْنّي يا قْلْبِي إِلَى مَا غْنّيتِي اليُومْ" تترامى إلى سمعي من الراديو فتشجي قلبي وتلهبه:

- فزّاعة..؟؟ لَمْ تُخْبِرْنِي بذلك مِنْ قَبْلُ حتى أَسْتَعِيرَ رِدْفاً كَرِدْفِ الفِيل، ثم أضعَ أَحْمر الشّفَاه والمَرَاهِمَ الخاصة بالماكياج لأبدو كَدُمْيَةٍ تَسُرُّكَ وتَسُرُّ الناظرين! هل يلزمُنِي لأحافظَ على عملي عندكَ أن أكونَ عظيمَ الرّدفيْن والنهدين؟؟ أنا لا أملكهما كما تَرَى، أنا مسمارٌ كما تَرَى!
- وهذا هو سببُ زُهْدِي فيك..
- هذا ظُلْمٌ بيّنٌ كما تعلم!
- كفى فلسفةً..لا وقتَ لديّ للمواعظ..امضِ إلى المسؤول المالي في منضدة تحضير الوجبات والطلبات، وَخُذْ أجرَكَ بلا ثرثرة، هيا لا تُرِني وجهك، قد قلتُ قولي فلا تجادلني، حتى لا أضطر إلى حرمانك من أجرك..

لَمْ أُعَمِّرْ طويلا في هذا المقهى، خرجتُ من المقهى حسيراً مُنهزِماً، فأُغمِيَ عليّ ولم أفقْ إلا في الكوميسارية وأنا أمام شرطيّ التحقيق ينتظر عودتي من دُواري وغيابي عن نفسي، سألتُ الضابط الجالس على يمين المكتب:

- ماذا أفعل هنا يا سيدي؟ وما الذي جرى؟
- تلقَّيْتَ لكمةً مُدوّيةً على رأسكِ أمام مدخلِ مقهى، وصاحبُ المقهى يتّهِمُك..
- يتّهِمُني..؟ بماذا يتهمني..؟..ما هذا؟ ضْرْبْنِي أُوبْكَى أُوسْبْقْنِي أُوشْكَا..؟!

- يتهمُكَ بهذا..

مَدَّ إليّ ورقةً كنتُ قد وضعتُها على طاولة فارغة في مدخل المقهى وأنا أهم بالانصراف على عَجَلٍ لما طردني ربّ المقهى، كَتَبْتُ فيها بيتيْن للمتنبي:

أذمُّ إلى هذا الزمان أُهَيْلَهُ ** فَأَعْلَمُهُمْ فدْمٌ وأحزمُهُمْ وَغْدُ

وأكرمُهمْ كلبٌ وأبصرُهُمْ عَمٍ ** وأَسْهَدُهُمْ فَهدٌ وأحزَمُهُمْ قِرْدُ

لَمْ يشفعْ لي إلا كون مسؤولٍ رفيعٍ في الأمن كان والد أحد تلاميذي السابقين، حكيتُ لهُ ما جرى باكيا بحرارة، فأطلقَ سراحي وشفعتْ لي معرفتي لولده، فانطلقتُ من باب الكوميسارية كالسنجاب الخائف أبحثُ عن موقفِ الأوطوبيس...

****

على كل حال كلما حاولتُ أن أكون غنيا بنفسي وجدتُ الفقر منتصبا أمامي، ووجدتُ الحياة تُرضعني الجوع والموت..لقد ألفتُ العمل في أي شيء منذ قررتُ هجرة والدي المخمور في الدار البيضاء، والمجيء إلى أكادير للدراسة في الجامعة، أبي يعمل حارسا ليليا في عين الذياب، وأمي تشتغل بردفها ومؤخرتها الرهيبة في الحفلات والحانات والأعراس، وأنا في أكادير أدْرُسُ صباحا وأعملُ ليلا وأُرسلُ إليهما النقود ليؤديا ثمن كراء كُوخِنَا في "السكويلة" ..أنا وجه النحس والشؤم منذ عقلتُ..! هذا لا يهمّ الآن يا صباح...الذي يهم هو: طابَ جوعُنا...!

الجائع: محمود

جواب الرسالة رقم (٨)

أووووف عزيزي محمود..أووووف..!

لقد طَرَدُوكَ من العمل دون أن تتوصّلَ بأجركَ لمدة سنة..!؟ أخذوك لَحْماً طازجاً ورموْكَ رميماً، سطَوْا على آلاف الدراهم في صمتٍ عذْب.. هذا كله عجيب! ولكن عزيزي محمود يجب أن تخلد للراحة قليلا، لا تراسلني بعد اليوم، زوجتُكَ "زينب" ربما ستكشف أمرنا فيكون منها ما لا نريد...لا تُحرجني أيها الباذخ.. كلنا قد غرقَ بالطريقة التي اخْتَارَتْهُ..!

سأعترفُ لكَ بأنكَ لازلتَ تعيشُ في رُكْنٍ من نفسي، ولكن لا مجال الآن للمسلسلات المكسيكية والتركية في مثل هذا..تصبح على شِعْرٍ:

قمراً كُنتَ في السماء
والبحرُ من تحتكَ
نخورٌ بردائه،
فجأةً سَ
قَ
طْ

تَ من السماء
فلما رماكَ الموجُ
على شاطئ قلبي
بكى البحر ..
فعُدنا معاً
إلى السماء ..

مع وارف مودتي أيها الشامخُ في أَلَمِه..
صباح المعذبةُ بكَ دائما وأبداً..

الرسالة رقم (٩)

انتظري قليلا عزيزتي صباح..قصيدتُكِ "بكاء البحر" ألهمتْني "غضبة القمر" أقول فيها:

أرادَ البحرُ
أن يقطفَكِ من السماء
ليذوقكِ ..
فقلتُ:
هل أصفَعُهُ على خدّه المالحْ
أم .. أُسامحْ؟
قُلْتِ:
أبداً،
لا تُصالحْ..!

يا لكِ من ساذجة! هل ذكرتِ المسلسلات الميكسيكية؟؟؟ هّا..هّا..هّا..هّا..قد سَمِعْتِ رأيي فيها منذُ أمَدٍ، ألا تذكُرين؟؟ حبُّنا القديم هو ضربٌ من هذه المسلسلات كما تعلمين، هي مسلسلاتٌ للاسترخاء وقتلِ الوقت لدى المغاربة، لاوَاقِعِيَتُهَا وطغيانُ الجنس والخيانة على جلّ أحداثها الساذجة والطريفة كفيلٌ بأن تَأْسِرَكِ وتخدّرَكِ، وفي الغالب بعنصر الإثارة والحبكة

اللاواقعية...عَالَمُ النساء عَالَمٌ عجيب وناعمٌ كالخيزران..أووف..لا تجعليني يا عزيزتي أضحكُ منكِ ومن ذوقِكِ المأسور..

على كل حال لنْ أؤمن بقلبِكِ ما طلعتْ عليّ الشمس..وَقَبْلَ أن أفعل ما طَلَبْتِ مني لديّ الآن بجانب السرير كتاب "الأعمال الشعرية" لمحمد الماغوط، سأغادرُكِ بِسَطْرَيْن من شعره يقول فيهما:

"أتمنى أن أمسكَ هذه الأرض من جلدها
وأقذفَهَا كالهرّة من النافذة.."

مع خالص ذُبولي وجُوعي وموتي

محمود المعذَّبُ بنفسه..

محطة القطار- الرباط المدينة

ها هو القطار يدخل إلى الرباط.. ها هي ذي الرباط، كم هي جميلة وفاتنة! لم أكن أعلم أنها تتجلى لمن غاب عنها بكل هذا الحُسْن والجمال والغواية! لا أتذكر فيها سوى دوار البسطاء والأفارقة الذين يشبهونني/دوار الحاجة، لأن جماعة من اللصوص ذات مرة حينما كنتُ معلمَ أطفال في مؤسسة خصوصية دخلوا إلى البيت الذي أسكن فيه في دوار الحاجة، وأنا خارجَ البيت في المؤسسة في الرباط المدينة، فسرقوا مالي وكل ما أملك فيه ولم يتركوا شيئا سوى ديوان "ترجمان الأشواق"، كنتُ أقرأه ليلا حينما أعود إلى هذا الكوخ..لم أَضْجَرْ، ولكن لو سرقوا "ترجمان الأشواق" لفتشتُ الدوار كله حتى أجده، ولو كان في جحر ضبّ لدخلته لأُخرجه منه.. إيه يا زمن.! لقد كنتُ أشبه بمحمود الذي يقطع بقدميه ودراجته كل تلك الكيلومترات الظالمة ليصل إلى المعهد، أنا كذلك كنتُ أفعلُ مثله، ولكني أكبرُه في المأساة لأن المشيَ وَجَرَّ الدراجةِ من دوار الحاجّة إلى الرباط المدينة يستهلك وقتا أطول من الذي بين أيت ملول وأكادير..أووووف..! سأخبرُكِ يا رباط ويا حيّ التقدم ودوار الحاجة أني خرجتُ الآن لأرى أختي الوحيدة كُلُّو. أختي الموريسكية التي لم أرها إلا مرة واحدة حينما كنتُ طفلا، وقد جاءت مع أبي ولكن أمها لم تأتِ..لأنها كما قال أبي سافرتْ إلى إسبانيا لضرورة قصوى لكنها لم تعد..أَجَلْ..لم تعد بْرِيدَا، هذا هو اسمها في إسبانيا وعائشة في المغرب..

ها أنذا قد خرجتُ من تنغير متلهفا لأرى أختي للمرة الثانية فقط في حياتي..أختي كْلُّو بلغة تنغير تعني كلثوم، لم تشأ أمها المتذبذبة مثلنا -التي لم يتمكن الإسلام من قلبها ومنّا بعد- أن تأخذ ابنتُها هذا الإسم التنغيري، لكن أبي أَصَرَّ عليه فإن أبتْ فسيتخلى لها عن أختي كما يتخلّى عن متاع لم يعد صالحا للاستعمال، ولا أدري لماذا تصر بْريدا على التمسك بأبي رغم كونه لا شيء فيه يغري بهذا التمسك؟ ربما هي تحبه أسداً إفريقياً هَصوراً على السرير! ولكنه ليس فحلاً، إنه أضعفُ من عصفورٍ..! أو ربما هي تحبه.. من يدري؟ لا شأن لي، لا، بل لي شَأْنٌ، لولا أبي..لولاه لما جاءتْ أختي الموريسكية ولما نعمتُ بالنظر إليها.. هي قد جاءت من صلْبِهِ فأهداني أجملَ هدية منه، فهي إذن بعضٌ منه..منا.. مني..

كانت بْريدا قدْ اقترحتْ اسم كوادالوبي بدلَ كْلُّو..هههههه..اسم بطلة المسلسل الذي كنا نتابعه بخشوع على شاشة الأبيض والأسود..أختي كلُّو: أمٌّ موريسكية أخذتْ عنها كل تقاسيمها؛ شعرٌ أشقر تسدله فتنسدل معه جبال تودغى، وابتسامةٌ من بِلَّوْر تَمِيدُ لها رؤوسُ الفلاحين الذين يمرون بها مع شروق شمس أسفالو، ووجهٌ أبيض قد غُسِّلَ بالمرمر، وأناملُ من حرير..وأبٌ إفريقي مثلي من تنغير؛ لم تأخذ منه شيئا، لا أنفُه الأفطسُ ولا رأسُه رأسُ اليقطين، ولا تجاعيدُ وجهه الأسمر. حْدُّو عْكْرِيم، هذا هو اسمه الأمازيغي، مرشدٌ سياحيّ منذ دهرٍ، يُحسِنُ الإسبانية والفرنسية وشيئا من كلمات الترحيب بالإنجليزية..لم تأخذ عنه أختي غير ابتسامته الساخرة العذبة..وما أَجْمَلَهُمَا معاً حينما يسخران..! لا أستبعد أن تكون أصولُ أمها تمتد إلى المرابطين أو الموحدين، ولكن هذا ليس

مهمّا، ما يهم أن خيال كْلُّو حينما كنتُ صغيرا لم يفارق مخيلتي إلى الآن..فليغفرِ الله لأمي لأنها كانت قاسية معها بلا سبب..!

كْلُّو: دمي الطنجاويّ.. كْلُّو: شيء مني الطنطاوي. بعضي الطنطاوي.. سأحاول الآن أن أمسك في الهواء بشيء منها وأقبض عليه، سأرسمها الآن في مقصورة القطار في الهواء أو على زجاج نافذة القطار: مَرْمَرٌ في صورة امرأة، عينان خضراوان ورموش مقوسة إلى أعلى وأسفل، وعظامٌ من زجاج أجملُ من زجاج هذه النافذة، وشفتان من عالم آخر وأنوثة من بِلَّوْرٍ، ووووو..وكثيرٌ من "ياااااه! واااو!"، باختصار إنها مَاسّة. كأنها خُلِقَتْ كما تشاء!

لو تزوجتْ كْلُّو على يدي، وكان جَهازُها على يدي، وكنتُ أنا القائم على زواجها سأشترط على من يتزوجها أن يحافظ عليها كما يحافظ على عينيه، أن يضعها في قلبه ويغلق عليه بابه إلى أبد الآبدين.. هذا شرط يغني عن المهر وزينة العروس، ولن أتنازل عنه..أقسمُ بالله إنني لو وصلتُ إلى منزلها بالمدينة القديمة بطنجة وعانقتها، وجلستُ إليها لأشرب الشاي، وبكينا معا حتى نشبع، وغسَّلْنا قلبيْنا المتعبيْن بنا من كِلْسِ الشوق، وترامقنا حتى طلوع الفجر لن أخبرها بموت أبي وهو يضحك ولما سألتُه:

- ما الذي أَضْحَكَ سِنَّكَ يا أبي؟

ردّ باسما :

- رائحة الموت..

- وهل للموت رائحة يا أبي؟

- نعم..إنه أشبه برائحة مطاط محروق أو ..قُرُونِ خَرُوفٍ محروقة..

ماتَ أبي..تَهَاوَى أبي من فوق السرير على الأرض مثل كيس فارغ. كُلُّو لا تعرف.

*****

على كل حال، تنغير وأختي وأمي وأبي كلهم يسكنونني و..وسَأَدَعُ هذا الآن جانباً.. أظنُّ ظنّا أني عثرتُ الآن على الرسائل الأولى بين محمود وصباح.. قد وجدتُها مطوية في جيب من جيوب الحقيبة الداخلية..كِدْتُ أتهاوى من فرط الدهشة لَمّا قرأتُها، ولا أخفيكُم سِرّاً إنّ ما قرأتُه فيها أسالَ لُعابا صوفيا في قلبي كالذي أَجِدُهُ لِكُلُّو، حتى كدتُ أذوبُ وَجْداً لِمَا قرأتُ، فَمَسَّنِي ما قرأتُهُ بِنُصْبٍ وعَذَابٍ، حتى ظلّتْ نفسي تجادلُ عن نفسها وتقول:ما بَالُ هذيْن البُلْبُلَيْن الصُّوفييْن لم يضمهما قَبْرٌ واحد..! ربما تكون صباح أو أُورُورَا قد تمادتْ في حزنها الآن، لاسيما بعد أن بصقتْ على رواسب الذكرى وانتهى كل شيء، لكنه على كل حال حزنٌ لا يليق بمن كان في مثل صَبابَتِها وتصوّفها من النساء!

آه.. نَسِيتُ أيضا أن أقول لكَ- وأنا كما أقول دائما إنني رجلٌ كثيرُ النسيان- يجبُ أن أعترف أني بكيتُ لَمَّا قرأتُ الرسائل الأولى بينهما، لاسيما وهما يحفران النسيان من الماضي لِيَبْسُطَاهُ على الرسائل..ويظلان معاً كالعاشق المنسيّ في عُقْرِ نفسه..

أشم الآن رائحة عطر لذيذ يفوح من امرأة تسحب حقيبتها ذات العجلات، وتندفع وتدافع الأجساد لتحجز لها مكانا داخل مقصورة القطار، إنه فوج آخر

من المسافرين يصعد من محطة الرباط المدينة..منهم من يغيّب عينيه في هاتفه الذكي، ومنهم من يسأل عن الكرسي الفارغ لمسافة ستة أمتار..ومنهم من يطأ على الصغير والكبير.. ومنهم من..لا شأن لي بأحد..آه.. كَمْ أنا ثرثار؟ ولأن لِساني كَلِسان الشمعة لا يهدأ سأصمُتُ الآن مُضطرّاً، لنسمع ما لدى محمود وصباح، وحتى لا تَرَى دُموعي التي أحدثّتَهَا هذه الأوراق إليكَ الرسائل الأولى رقم (١) و(٢) فهي سَتُحَدِّثُكَ بَدَلاً عني، وهي الآن جاهزةٌ للبوح والبكاء ..

الرسالة رقم (١)

وبعد..

أُورُورَا أم أناديكِ باسمك المغربي: صباح؟

لماذا عُدتِ؟ هل جئتِ مجددا لتحتلي قَلْبِي كما احتلَّ أجدادُكِ أرضَ آبائي وأجدادي؟ سأُلقي عليكِ قولاً ثقيلا فَشَرِّعي أُذُنَيْكِ لِتَسْمَعِي أو لِتَتَسَامَعِي..أقولُ لكِ وأنا الآن أتأملُ فراشةً جائعةً تُفسدُ بَهَاءَ زجاجِ النافذة بتردّدها المُزْعِج:

أما آنَ الأوانُ لنرتدي قلبيْنا العجوزيْن..؟ ما أطيبَ البكاءَ في حضرة النسيان ولكنَّ المكانَ للأسف ليسَ لائقاً لسقوطِ دمعة..! هل أسكبُ قلبي عن بكْرة أبيه دُفعةً واحدة لِتَجِدِي فيه ما لا يُوصَف ولِتُجَفِّفِي قَلَقَكِ القديم؟ ما رأيُكِ أن نجعلَ الماضي معاً يمشي الآن على قَدَمَيْن؟ آه..ربما ستُواجهينني بما عَهِدْتُهُ منكِ دائما حينما تقولين لي:"مَا كلُّ هذا التَّحَمُّسِ الأَرْعَن للبكاء..؟"

أو تقولين:"إنني مَجْنُونٌ قد مَسَّتْ أوتارَ قلبِه أَحْلاَمٌ عِذَابٌ فَصَارَ يهذي ولا يدري ما يكتُبُ ويقول ..!"

هذا لا يهمّ الآن.قُولي ما شئتِ فأنا كافرٌ بما تقولين وبما ستقولين.لكن هل ستصُدّقِينَنِي أنا إنْ قلتُ لكِ:..؟ لا.لن تُصَدّقِي..!

أقولُ ما أقولُ وأنَا الآن أَمَامَ مِرْآةٍ صغيرة على المنضدة بجانب السرير أراني فيها وأراكِ، والسماءُ من النافذة -آهٍ من السماءِ ومنكِ!- مسقوفةٌ بالكآبةِ

والفراشات، وها أنا أُحَدّقُ في سذاجةِ الزمن.. آه..لقد امتطيْنَا صهوةَ الغياب ردحاً من الزمن غيرَ يَسيرٍ، أليسَ كذلك؟ فَمَا جَاءَ بكِ من كهفِ الغياب..؟ ما رأيُكِ في هذا النسيان الذي تَوَسَّدْناهُ زَمَناً..؟هل أصبح النسيانُ وِشَاحاً في صدركِ لا على صدركِ؟ آه..لو تَغْسِلُ بِحَارُ الأرض هذا النسيان..!

سَأقولُها مرة أخرى كدأبي في المرات الجوْعى السالفة: لنْ أَلُومَكِ على نِسْيَانِكِ إيّايَ ونسياني إيّاك.. كَلاَّ لن أفعل..ولقد يكون لائقاً جدا أن نتفقَ معاً على أن البكاء على اللبن المسكوب لا يُجدي شيئاً..على الأقل الآن وأنا مَنْفِيٌّ في هذا المستشفى الذي أحيا فيه كما لو كنتُ غُراباً عجوزاً لا يقوى على الطيران، وقد جئتُ إليه أستطبُّ لِوَجَعِي كما تعلمين..

اليوم، كلُّ شيءٍ كانَ بيننا سَيَتَأَلَّقُ بِعُرْيِهِ..سأقفُ عند هذا الحد لأسمعَ منكِ..هيّا تحدثي يا..صباااااح..

محمود

جواب الرسالة رقم (١)

عزيزي محمود..

أنا سعيدةٌ جدا بالعودة إلى رحابِ الوهم، هل أغفرُ للقلبِ أخطاءَ صلاتِه الأولى؟ ثمّتَ سلاسل من الأسى تطوّقُ حبيبي الوهم! لماذا أيها الهبَاءُ تُجَنّنُني؟ قُلْ للأنثى- أيّ أنثى- هنيئا لها بكذبها على نفسها وهي تحضّرُ وصفات من الألق ترقّعُ بها كبرياءها الحزين.

محمود..

قبل أن تسمعَ مني كما طلبْتَ، أحبُّ أن أستعرضَ معك لحظةً خالدةً من أيامنا "الفارضيّة"، لعلكَ تذكر ذلك يا ابنَ فَارِضِ حُبّنَا الأعرج، يومَ تثَاءَبْتَ لِتثاؤبِ الشفق، وأنتَ ترنو إلى الفراشات في فناء المدرسة، وإلى الطيورِ وهي تنفضُ غبار الصمت في الأفق، ابتسمتُ يومها ابتسامة حزينة وصحتُ وقد غلبني الصمت الأهوج:

- لماذا تتحدث عني هكذا؟
- لأنكِ هكذا.
- تَسَلَّقْ موضوعاً آخر.
- انتهتِ المواضيع كما سننتهي وشيكاً.
- الوهمُ يتضوعُ منكَ يكادُ يكونُ مِسْكاً..ما خطبُكَ..؟

أُصدِقُكَ القول؟ بصراحة، لما دنوتَ مني حينئذٍ ودنوتُ أنا مِنْ بَهَائِكَ مّسَّنِي وقارُكَ بِنُصْبٍ وعَذَابٍ، ولم أعبأْ بالأطفال الذين يتشبَّثُون بِأطرافِ وِزرتي البيضاء ويتعلقون بها، ويطوفون حولنا كالفراشات..

واربّاه..! هلْ أقولُها كما قُلتَها أنتَ في مثل ذاك اليوم البئيس: ما ألذَّ النسيانَ في مثلِ هذا! لكن أووف قيلَ لي ما سأقول،لم أتهيأْ لهذا النسيان الذي يستيقظ الآن في حَيِّزٍ من ذاكرتي..لم أتأهبْ لجلال النسيان! أَأَصبحَ ما كانَ بيْنَنَا حِذاءً قديماً مُخْجِلاً لابدَّ من نسيانِه؟ ولعلكَ تقول: ما الذي كان بيننا أصلاً حتى يُنسى؟ أريني ماذا يفعل الإنسان إذن لِينسى؟

هلْ أقولُها: بيننا يتوغل شبحُ الخيانة لِطَرَفٍ مَظلومٍ هو زينب المسكينة..؟

هلْ أقولُها:يا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنا؟ أَجَلْ، مَرْقَدِنَاااا العجيب..؟؟

هي أسئلة قصيرة إذن يا محمود والأجوبة ستكون أَجْمل لو كانت أَقْصَر، ولا جرَمَ أن الأسئلة بيننا ستتناسلُ منذ الساعة، وتفرّخُ أجوبة عرجاء، وذلك ما يمضي به القول إلى غير انتهاء..!

عزيزي، تقولُ لكَ الفراشة:

أَلِمِثْلِ هذا وَلَدَتْنِي أمي: أَنْ يُقَلِّمَ البحرُ قلبي وتصفعَ الأمواجُ ما في خاطري..؟ أريدُ أن أرحمَ نفسي لكن هواها لا يرحمُها،هل أبكي وأنا لا أحبُّ البكاء والبكَّائين؟هل أضحكُ وأنا المُضْحِكةُ في كل شيء؟ انطفأتْ في ثغري كلُّ ابتسامة وتثاءَبَ كلُّ شيء..أيْ نَعَمْ.. تثاءَبَ كل شيء ومعطفُ الخريفِ الزاحفِ لم يُذْبِلِ الأشجارَ فقط بل قد التَحَفَنِي وانتهى كلُّ شيء.. إذن ماذا

سأقول لك الآن وأنا أُسَاقُ إلى الكآبة نكحروف العيد؟ هل أقول: دعني مني وحدثني عنك!؟ لا أدري ما أقول، ولو قلتُ لا أحسبُكَ تعذرُ تَرَدُّدِي الأعرج.أُوَاه! يَنتعلُني الغضبُ والحزنُ الثقيل وأنا أَسوقُ هذا الكلام إليكَ وأتساءلُ: ما أَرَبُكَ إلى هذا كله...!؟

وقبل أن أغادرك أقول:

أنا لا أتضايقُ أبداً من مناداتكَ لي باسم "أُورُورَا"، إنه اسمي الأول كما تعلم، وإن كانت أمي الإسبانية تحبه، فإن أبي مغربيٌّ كما تعلم وهو لا يجد حرجاً في الاسمين، كما لا تجدُ أنتَ حَرَجاً في أن تنعتني برابعة العدوية وأنعتَكَ أنا بابن الفارض..! ثم إن أجدادي من أبي مغاربة وأنا قد نبتُّ في أكادير كما تعلم، فلماذا تنصبُ المدافع والمشانق حين تخاطبني..؟ ألا تخاطبني بلسان وُدِّنَا العَذْبِ القديم..؟

صباح

الرسالة رقم (٢)

وُدِّنا العذْبِ القديييم..؟؟ أُووفْ..!! حقّاً صباح..

لا جرَمَ أن الأسئلة بيننا ستتناسلُ منذ الساعة..إذاً:هَلْ أقولُ: قد فاتَ وقتُ ذلك كلّه وحانَ وقتُكِ الطّاعِنُ في الوهمِ والفوضى..! أليسَ كذلك..؟صحيحٌ جدا أني حين أستحمُّ بخيالِكِ الصّارخ لَحْظَةَ الغياب يقول قلبي:سبحان الذي أسْرى بقلبي إليك! لكنْ لِحاءُ الذاكرة الآن نسَجَ عليه العنكبوت، وأَجْهَزَ عليه البعوض..وأتساءلُ- ويا ليتني لَمْ أتساءلْ- لماذا أحكي ما سَتقرئين؟ أَلِأَقُضَّ مضجعَ الحزن وأُوقِظَ تنهداتِ الماضي مِنْ قَبْرِ النسيان؟ لماذا أُزعجُكِ إذن الآن بهذا الذي- ولا ريْب- تتقزّزين منه؟ لا ضير، أنا لا أَسْتَلُّ سيف الحكي إلا لأكون قاتلا أو مقتولا في عرصات هذه الحياة المُضمخَة باليأس الأعمى..أَجَلْ..مؤكدٌ جدا- بزعمكِ- أنني أستاذ وما سألتُكِ يوما عني:مَنْ أكون!؟ وكما تعلمين دائما وأبداً سأعود بجوعي وظمئي لأخبركِ بما يجعلكِ تنفجرين بالضحك مني وعليك.ماذا عساي أقول إذن والقلبُ تَتَقَاذَفُهُ الأيام إلى مطارح المتاهة؟لا بأس، سأخاطبُكِ بلسان وُدِّنَا القديم كما طلبتِ وأقول: هل تَذْكُرين كلَّ ذاكَ الذي كان بيننا..؟ ولماذا سَتَذْكُرين؟ كان ذلكَ ذكرى ينهشُها النسيان..!

وَاهاً على ما مضى يا صباح! آه..نعم، كنتُ قد صَمَتْتُ قليلاً حينئذٍ وأنا أحسُّ بقوة ما تقولين يسري في عُقْرِ أعماقي كالدواء، ولقد ذبُلَ رُكامٌ رهيبٌ وربما تَافِهٌ في رأسي أنذاك..ولقد كُنّا واقفيْن وتوحُّدُنا يغشى البياضَ ويغرفُ منه بعضَه، والحوارُ بيننا يتردد كالموجِ الهادئ، أحيانا أسترقُ النظرَ إلى وجهِكِ الوضّاء وملامحُ أمكِ الإسبانية تطلُّ من عينيكِ المُفْنِيَتَيْن؟ أَكَان وجهُكِ وَضَّاءً فِعْلاً ؟ بَلَى..بَلَى كان كذلك، وكُنْتُ أسترقُ النظرَ إليه ساهياً وربما متعمّداً، وأصارعُ الأدب والغضّ في حضرتكِ إلى أن يؤوبَ إليّ رُشدي، فأهربُ من نظراتكِ وأُوثِرُ الإطراقَ والحياءَ قبالة ذاك الوقار المهيب الذي تَدَّثِرِينَ به..ولكن هل كنتُ كما أقول: خجولاً أكادُ أغرقُ في الحياء والحشمة، وأُنعتُ بصفاء السريرة، وأصارع الأدب والغض في حضرتكِ مثلما أقول؟؟ لا..لا..حاشا أن أكون كذلك..المهمّ ابتَسَمْتِ وقتئذٍ وقلتِ متسائلةً:

- (لماذا تُصِرُّ على الفرار من الحياة ..؟)

*****

كان هذا كلامَكِ أو أَقُولُ كلامَنَا! أتذكرين ذلك؟

هَل تذكرين قولَكِ الآخَرَ اللاّهِبَ وقدْ أَشْرَقَتْ في ثغرِكِ ابتسامةٌ لطيفة، ونَحْنُ نُمَتّعُ أبصارَنا بمنظرِ الغُروب من أعلى شُرفةٍ في الطابق الثالث في المدرسة، والحُمرةُ تصبغُ الأفق، والنسيمُ يُمَرّرُ يَدهُ الباردة الناعمة على خَدّيْنَا:

- (إن ما يُدمي القلبَ حقا يا ابنَ الفارض أن المرءَ قد يُطِبُّ لغيره ولا يُحْسِنُ أن يُطبّ لنفسه، أنتَ تعلمُ ما آلَ إليه الحال بعد موت أفكارِنا المُبحرَةِ في العراء..اُنْظُرْ عزيزي إلى احمرارِ السماء بعد زُرقتها، أَمْعنِ النظر في تلك السحبِ الحمراءِ كأفكارِك المندفعة..وتلكَ الشمس التي تلفظ أنفاسَها،ألا تَرَى الزمن يدور ويدور في الوَحل ولا يَثْبُتُ على حال.. ؟ ذلك هو عصرُنا أقذرُ العصور..!)

هل تذكُرين؟ لم أعدْ وقتها ابنَ الفارض الذي تنعتينني به،كنتُ غاضباً غضباً لا تثريبَ عليه، قلتُ لكِ حينَها مثل أَسدٍ جريحٍ غاضبٍ من أشباله:

- (إذا كنتِ تركعين لسطوة الزمن، فما جدوى حديثِ القلب الذي تُدمّرُه يَدُ الزمن وتَنْسِفُهُ؟ أتمنى أن أزدادَ نفياً في جُزُرِ ذاتي، حتى لا أستمع لأحدٍ حتى وإن كان أنتِ!
- أَأَنتَ راغبٌ عنْ سماع قلبي يا محمود؟)

وقلتُ حينئذٍ لكِ وقد خرجتُ من جلدي ساخراً/ضاحكاً/باكياً/مدحوراً/خاسئاً/حاضراً/غائباً/مُجلجِلاً/وأنا سارحٌ في الأطفال الذين يمرحون في ساحة الأوبرا/عفواً ..أقصدُ..أعني..أريد أن أقوووولَ لكِ..أيْ ساحةِ المدرسة الفيحاء:

- (بُووولي على قلبكِ! لا يجبُ أن يَستسلِمَ قلبُكِ للحب..
- ماذا دهاكَ؟ ألا تخجل؟ ما هذا الفُحش الغريب؟ لِمَنْ سَيَسْتَسْلِمُ إذن؟

- تَصَامَمِي عن قولي إذن، وتَعامَيْ عني إلى الأبد..أنتِ حُرّة..ثم هل ستصبرين على العيش معي على الرمضاء بهذا الحب الأعرج؟
- أصْبرُ.. أيْ ورَبّي أصبر..
- يا رابعة أو يا أُورُورَا أو يا صباح المسكينة..متى يرتدُّ إليكِ عقلُكِ وصَوابُكِ الذي ضاع منك، متى..؟
- أنتَ تُعَذّبُنِي.. يجبُ أن تخضعَ لنداء القلب الذي يجمعنا..!
- أووووف..! أنتِ تعلمين أنني لا أعمل بنصيحة أحد حتى نفسي.. فلماذا تنصحين قلبي الجائع بهذا الهراء؟
- هل جُننتَ يا محمود؟ إنكَ تذبحني بما تقول!
- قولي لي لماذا تحبين حُطامَ فراشة..؟ أنا حُطامُ فراشة..!
- لاَ. أنتَ مَنْ سَيُلفُّ حطامَ قلبي..)

وصَمَتْتُ حينها على مضضٍ وضَجَرٍ، لأن الصمتَ في مثل ما تقولين يكون لذيذا، ثم قلتُ لَكِ في وُجومٍ:

- (أنا في ما أقولُ لكِ محمودٌ فقط، محمودٌ: كُتْلَةٌ من دمٍ ولحمٍ زائدةٌ على الأرض، وليس أستاذاً.. يجبُ أن يستسلمَ قلبُكِ للجوعِ الأعمى..أو بعبارة أنصع: يجبُ أن يستسلمَ الهَشِيمُ الذي في قلبِكِ للنارِ..أتفهمينَ؟
- القلبُ خُلِقَ ليُملأَ بالحبِّ الشّرسِ لا بالجوعِ والنارِ..!
- اِمْلَئِيهِ بما شئتِ.. أتعلمين؟ جيبي الآن جائع، وأنتِ تحدثينني عن الحب!؟ أليكِ أربعةُ دراهم لأمتطي الأطوبيس..؟

- أُصْدِقُكَ القول، لا أملكُ نقوداً، وصَدِيقَتِي كذلك، كان بودّي أن أقترض منها بعضها لكن.. كلُّ مَالِي ذَهبتْ به لوازم الماكياج والحلاقة..
- أرأيتِ؟ جيبُكِ مَثقوبٌ كقلبي، مَحْلُوقٌ كقَلبي، فكيف تحدّثينني عما يزيده ثقوبا وخرْقاً؟
- قلبي مليءٌ بكَ أنتَ.
- إملئي قلبَكِ لا بِي، بل بشيء من العَلف أو التِّبْنِ أو الحَصَى..
- قلبي مليءٌ بكَ أنتَ يا محمود..
- بُورِكْتِ أيتها الساذجة..ولكن اعلمي أنّ قلبَكِ حمارٌ ميّت..! اِحْمِلِيهِ على البْرْوِيطَة..!
- قلبي أنوارٌ مُكدَّسَةٌ بِكَ..!
- آه ..أيتها الصوفية العاشقة..! سيكون مناسبا أن تكوني بطلةً تَرَاجِيكُومِيدِيَةً لرواية فرنسية رومانسية!
- قلبي مليء بكَ أنتَ يا أنا..يا سلطان العاشقين..
- يا أنا أو يا أنتِ، املئي قلبكِ بشيء من الطّوبِ أو الإسمنت أو الإسفلت أو الجلاميد، لِيَخْشَوْشِنَ ويصبحَ أصمّاً قادرا على أيّ حياة..يؤسفني أن أقول إن عصرَنا بَالَ عَلَيْهِ المَالُ! سأقولُ وداعا للجملة الفعلية التي أشحنُ بها عقول التلاميذ ..عصرُنا ممنوع من الصرف،عصرُنا مفعول به وَقَعَ عليه فِعلُ الغربان والديناصورات، عصرُنا فاعلٌ لِكُلّ ما يُحزنُ حُبّكِ

الوديع..عصرنا قد تَوَضّأَ بالبولِ لِيَتَطَهّرَ من الفضيلةِ والحبِّ الذي تُزعِجِينَنِي به! ها..هّا..هّا ..

- ..... !
- لماذا سَكَتّتِ؟ هل نَزلَ الضيقُ بصدركِ؟
- ..ماذا أقول؟..هو كذلك.. كما قلتَ..!
- ذاكَ هو..! لسانُهم يبتلعُ فيهِ كلَّ شيءٍ، حتى حُبَّكِ المسكينَ الشّبيهَ بالأفلام الهندية ..يصلحُ حبُّكِ أن يكون في متحفٍ مهجور، أو أن يكون بجانب قبر جون بول سارتر وسيمون دو بوفوار يؤنثُه مع باقةٍ من الزهور..!
- لماذا تصرُّ على إهانتي؟ يصفعُني قولُكَ ذاك كما تَصْفَعُ أمواجٌ هادرةٌ قارباً ممزّقاً ضائعاً يواجه مصيرَه لوحده في كبد البحر..! ماذا دهاكَ يا أستاذ؟ ماذا تقول؟ ما سَمِعْنَا بهذا مِنْ قَبْلُ..!
- ..هل تعلمين ماذا أتمنى الآن؟
- ماذا..؟
- أن يُعَجّلَ اللهُ بأخذي، قد ضقتُ بي ذرعاً..قدْ فِضْتُ بي.سَأَصْمُتُ.)

إِيهْ..! هذا الضجرُ من كل شيء كان يلاحقني في ناصيةِ كلِّ شيء حتى ذيلِ الشُّرود ..حَقّاً ما أعجبَ ذلك منكِ أو أقول: مِنّا! ربما ما كان عليّ أن أمزّقَ صفحة الماضي أمامكِ الآن وأَفتضّها بهذا الشكل، لكن هذا دأبي: صريحُ الفكر

سديدُهُ بلا مساحيق، ولو اطلعتِ على أعمقِ أعماقي لَوَجدتِ ما أقول..لا تلومينني.. أنتِ تعرفينني أكثر من أمي..

التائه: محمود

جواب الرسالة رقم (٢)

أَيْ نَعَمْ عزيزي ..

لن ألومَكَ، ولكن لا مناصَ من أن تعلمَ أني ما نسيتُكَ يا محمود، وأنا الآن سَأُذَكِّرُكَ وهَا ناعورةُ الذاكرة تتحرك لتبوح :

يَغْلِبُنِي البكاءُ وأنا أقرأُ ما خَطّتْهُ يداك عن لقائنا القديم في المدرسة، والقلبُ يندفعُ في همساتٍ أجوسُ خِلالَها في لذةٍ رهيبة، ولكن هَلْ كان عَلَيكَ يا محمود أن تُبحرَ في كبد الزمن لتعرفَ أن نهاية السَّفَر أو فَلْتَقُلْ:نهايتَكَ ستكون على باب المدارس المذهَّب؟ يقولون:مُذَهَّبٌ،لأن الأستاذ يَهَبُ الذّهَبَ للتلاميذ وهم ما يزالون براعم يرفلون في البراءة والطيش واللعب..إذن لا تَلُمِ الزمنَ على واقعكَ المُزَمْجِرِ..إِلْزَمْكَ أنتَ كما أنتَ: طوداً عظيماً في عالم الجوع والخيبة.. أنتَ كما أنتَ: كالدلو الهائج في هبوطه إلى قاع البئر .. أنتَ كما أنتَ: أستاذا جائعا في كل شيء حتى في كلامكَ!

أَتَذْكُرُ صنمَ الماضي/حُبَّنَا..؟

أَجَلْ..لا جَرَمَ أنكَ تَذكُرُ.. تَذكُرُ وكأنها ذكرى طفولةٍ عاتيةٍ في خيالِ عجوزٍ..لقد انفرطَ عقْدُ الأيام العنيفة وغاصَ في رمال النسيان.. ولقد لعقَ الدهرُ ردحاً ليس هَيّناً منكَ، فكان أن أَتْمَمْتَ دراستكَ الجامعية خارجا لتوّكَ إلى

المدينة، وَاهِباً كُلَّكَ للشارع تتأملُ ما حولكَ مثل حمامة تائهة حَطَّتْ على طَلَلٍ مهجور.. كَتبْتَ طلباتٍ كثيرةً بعد مسودّات مُضنية، فوضعْتَها في سيكريتيريات عددٍ لا تثريبَ عليه من المدارس الخاصة، فلما هَزَأَتْ كلها من طلباتكَ وشهاداتكَ عُدتَ صِفْرَ اليَدَيْن، تُضمدُ جراح القلب بِحُقَنِ الأمل في العودة والمسير كسلحفاةٍ وَلُودٍ تزحف في اتجاه البحر، وتُلَطّفُ حرارة اليأس بإعادتِكَ للمحاولة، وارتداءِ الأحلام حتى آخر رمق..لكنها أيّ أحلام تلكَ أيها الحالم!

أَوَلاَ تذكرُ يا محمود؟ ذَاتَ إِعْيَاءٍ شَقَقْتَ ضجيجَ المدينة، وملأتَ قلبكَ بِشيء من الأمل الحافي، وجرعات من التجلد المهترئ، مُستسلماً لدخان السيارات الحديديةِ القلب، تسيرُ في كبد المدينة مكبلا بأصفاد القلق والامتعاض والسّأم، سياطُ الشمس تلهب فراغا فظيعا يتلمظ قلبَكَ، تُحدّقُ -أو تذوبُ-في صراخ العجلات المسرعة في أجسادٍ لا وقت لديها للهُوينى والكلام:عربةٌ بائسة تهتز من خلف حمار بائس، وحافلة لنقل موظفي الوكالات والمؤسسات العامة والخاصة، وأخرى لحمل التلاميذ، وناقلات للحديد ومواد البناء والزجاج والألومنيوم.. كلُّ شيء يمتدّ إليه بصرُكَ الحائر المتآكل في كبد هذه المدينة/الدينصور يهدرُ مثل طاحونة معطوبة، فتمضي في اتجاهات متعددة فتَجدُكَ منفصلا عن ظِلّكَ تُلاحقُه كالأعمى، فيتبرأ منكَ وكأنكَ لستَ له، فتعود-إليه متذمرا من ترددكَ الشديد في المسير..

أخيرا سَحَبْتَ ظِلَّكَ على الدُّرج، وَقَفَ الحارسُ أمام مدخل المدرسة كجدار السجن، نظر إليكَ نظرة جامدة، أَرْعَدَ مُزمجِراً:

- هذا المبنى ليس مرآبا لإصلاح هياكلِ السيارات على ما يبدو! أتفهم؟
- وأفهمُ أنك قد تحتاج لمن يُصلح هيكل لسانِك الطويلِ/ القذِرِ/ المحمومِ/ المتطفّلِ/ الْبَاسْلْ/ الْمْسُّوسْ هذا..! بالطبع الأرنبُ الشارد مثلي-أيها الحارس- لن يقوى على قول هذا الكلام..

تقول هذا في نفسكَ فقط، ولا تقدر على أن تتفوّهَ به أمام الحارس، لتعزي نفسَكَ وأنتَ تنظر إليها وقد تجردتْ من كل شيء بعدما أَنْهَتْ كل شيء.

- "هل يستريح الناس من العلم أيها الحارس، أم تُرَى العلمُ هو من يلفظ الناس إلى أقدارهم القاسية، ليتمرغوا في رمالها الحارقة بلا تردد؟" تقولُ في نفسكَ مرة أخرى ككلب ضالٍّ خائف ممن حوله.

إذن اِسْبَحْ في صحرائكَ يا أستاذ محمود، وَاسْتَلَّ نفسَكَ من غمدِ الغيب، لترى أتصلحُ أن تكون أستاذا أم كما قال الحارس عاملاً في ورشة الميكانيك أو السُّودور؟

آه يا محمود! لم تستطعْ أن ترفعَ صوتكَ أمامه بهذا الكلام..لا ضير، قد حكم عليكَ من لباسكَ المتّسخ، فلا تَلُمْهُ إذن ما دُمْتَ قد غفلتَ عن ترتيب هندامكَ قبل المجيء والسؤال عن بُغْيَتِك، وظننتَ نفسكَ حقا سيدي ابن عطاء الله

السكندري أو سيدي ابن الفارض جاء لمدرسة الأثرياء ليعلمهم مبادئ التصوف والاتحاد والتَّوَحُّد!

- عفواً، أليستْ هذه المدرسة الخاصة الجديدة التي ..؟
- أستاذ جديد؟؟
- إن شاء الله..
- اعذرني ظننتُكَ كما قلتُ لكَ اللحظة! ولكن يا أستاذ كان عليك أن تلبس لباسا غير هذا ..هذا المبنى لا يطؤُه إلا الأثرياء ثراءً لا قِبَلَ لَكَ به ولن يستوعبَهُ عَقْلُك.. وسَيَسْخَرُونَ منكَ لو رَأَوْكَ في هذه الأطمار..عفوا ..أعني في هذه الملابس!
- شكرا، سأفكر في هذا لاَحِقاً، غرفةُ الاستقبال من فضلك؟
- في ناصية الدهليز أمامَكَ على اليمين مباشرة.
- شكرا.

قُلْتَ لنفسكَ المطحونة وقتذاك: "الأطمار؟؟ طَّاااااااآنْ.. يا وَيْلِي! دَوَّتْ هذه المطرقة/أقصدُ..أعني..أريدُ أن أقولَ هذه الكلمة في مُخّ مُخّي، وجَلْجَلَتْ رأسي وارتطمتْ فيه كقِطارَيْن هائجيْن! الأطمار؟؟ آه..ليتَهُ قال كذلك: هذه الأطمار المرقعة! أَشْعُرُ بالمهانة والقذارة تسري في عروقي، وأنا أتأمل نفسي في نفسي وأنظرُ إلى هندامي المتّسخ بالعَرَق، وشيءٍ من بُقَع الزيت أسفل السروال..الأطمار؟؟ أُمّاااااه وَيْلاااااه!! آمِّيمْتِي..! هل أبدو من المُعْدَمِينَ

المسَاكين؟ أيتها الصراصير الصديقة في حُجرتي تعاليْ لتنقذيني.. قَشْعريني يا عزيزتي أنت الوحيدة التي تفهم جوعي وتُرَتّبُ جوعي ليستحق الحياة في كياني الذي أوشكَ على ألا يصبح لي، أيْ نَعَمْ.. صديقاتي .. أَبْشِرْنَ ها أنا أمارس الجوع، وها ملابسي قد أكلَها الجوع..وها الحارسُ أصابَ كبد الحقيقة.."

*****

ربما كان عليكَ يا محمود أن ترتب أطمارَكَ - عفوا- هندامكَ قبل المجيء إلى المؤسسة وقتئذٍ، وربما كان على صَراصيرِ حُجرتِكَ كما زعمتَ أن تُرَتّبَ جوعَكَ وظمأك، لكن ما حيلتي إن كنتَ جائعا موغلا في جوعِك وظمئِك..فَلْأَقُلْ إذن: للجوع والظمأ أحكاااام..ولِبُقَع الزيتِ في أَسْفْلِ السروال أحكاااااام.. !

التائهة: صباح

محطة القطار- سلا تابريكت

بلغنا محطة سلا تابريكت وقرص الشمس يتزحزح عن كبد السماء، كانت الرسالتان الأولى والثانية لصباح ومحمود قد لَسَعَتَا قلبي، فَغَاصَ قلبي في حزن غامض، لكن سرعان ما انتعش بتذكر طنجة وقد أخبرني أحد المسافرين بتقلص المسافة والزمن، ودنوّ الموعد بعد أن نجتاز مُدناً أخرى.. فهزني طربٌ إلى الوصول...وقد عشقتُ طنجة التي لم أرها لعشقي لِكْلُّو، لقد ابتسمتْ كْلُّو ذات مرة وهي تقول لي ببيتنا بأسفالو: أيهما أحب إلى قلبك:تنغير أم طنجة؟ فقلت لها كطفلة ظفرتْ بدميتها المفقودة: أما الطينُ اللازبُ الذي تشكّلتُ به وكُنْتُنِي به فهو في تنغير، فأشمُّه في كل دارٍ طينيّة أو قصبة أمرُّ بها، أما قلبي فهو يعمل وينبض هنا في تنغير من طنجة..لا خيار بين الصلصال وقلبي .!

****

على كل حال، نعود إلى محمود وصباح.. يبدو أني لم أعثر على الرسالة الموالية، ولكن مَهْلاً، ما هذه القصاصات الحمراء والزرقاء..؟؟ نَعَمْ، سوف أتأكد من فحواها، ربما تكون هي الرسالة الموالية..كَلاَّ..كلاّ هي ليست كذلك، إنها كلمات منثورة وشذرات متلاطمة، وأشعار شاردة بعضها مَهْهُورٌ باسم محمود، وأخرى باسم صباح..

القصاصة (١)

ضيف مرتحل:

أيها القلب العربيد، لا تبتئسْ ولا تضجرْ، أنا الطارق فافتحْ يرحمكَ الله لأَحُلَّ عندكم كالضيف وأُتِمَّ رحلة الشتاء والصيف ..

***

ربما لأن القلب جائع ..

لماذا أنا حزينٌ ..؟: قلتِ.لستُ أدري، ربما لأن اللوالب المعطلة لا تدور إذا لم تُعْلَفْ بالزيت !

***

قاتلة:

أيتها الوردة الفتية، كلما حدّثتُ الناس عنكِ قالوا: أهذا كل ما عندها مِنْ وَاآآو..؟ فأقول: مهلا أيها الجائعون لو رأيتموها لقرأتم على قلوبكم: إنا لله وإنا إليه راجعون !

***

فتوى:

قلتِ عن شِعري: هذا حلال وهذا حرام.يا حبيبة ! ما هذه العجينة ؟ لا يُفتى ومَالِكٌ في المدينة.. !

***

اعتداء:

هذا القلب يَفْتُرُ .. ويَفْتُرُ .. عندَ كلِّ احتيالٍ على هيكله الهشّ.

***

توجُّس:

لأن قلبكِ أثقلُ من الجبل سأضطر لانتعال الخجل.

***

لا أصبرُ عليك:

سأبقى حزينا كالطّلل الذي لم يختر لنفسه أن يكون خرابا، سأصبر عليك يوما أو يومين .. لكن، في اليوم الثالث لن أبقى على قيد الحياة، لأن هذا القلب يواظب على ترتيل همهمات جائعة كلما جادت شفتاك العذبتان بابتسامة رائعة، ولأنني باختصار أتلذّذُ بتساقط عينيّ لهذا الوقار، وأتهاوى كلما رأيتُ يدَ الله تتغلغلُ في صُنْع ما أرى وما يرى الفؤاد، وفي إبداعِ عذوبتك، وابتسامتك، و..إبداعِ موتي..

إنذار:

حينما يضيع النسيم من ثغرك، ويتكئ الصخر على رأسك وقلبكِ الحديث الرضيع، وتضعين قُطْناً في أذنك الجموح اللاهث، فلا تنتظري مني غير كلمة واحدة: أيها النمل ادخلوا مساكنكم.

***

مِرماشةٌ:

لأن عينيكِ تخفض أدبا .. ونجلا .. أفنيتُ عينيّ في البكاء وفيكِ..

وداع:

لأن القمر ألفَ الترحال، سأبقى على هذه الحال.

***

حبّ مدلّس:

في هدأة الليل أتذكر الخصام، فتلتفّ الساق بالساق، لا ترتابي طويلا، عَهِدْتُكِ كالإمام أحمد: حديدا في حديد، فلا تكوني كبقيّة بن الوليد.

سماء:

السماءُ التي تمسح الدمع عن آدم لا تموت، وفي رحاب من ذهب يُكتب لها الخلود، وإذا ماتتْ عنوة، ماتت ميتة أصحاب الأخدود.

ذلكم الله:

كلما نظرتُ إلى وجهكِ الوضّاء أدركتُ أن الله موجود، كلما غبتُ في عينيكِ اللؤلؤتين أدركتُ أن الله موجود، وكلما تنقّلتُ بعينيّ في كل هذا أدركتُ أن عطاء الله ليس له حدود.

محمود

القصاصة (١)

عيناكَ عصا موسى

عيناكَ بحرٌ
هربتْ منهما السفنُ القادمةُ إليهما،
عيناكَ عصا موسى
تُهشُّ بهما على حَمَلٍ
لم يتعلمِ المشيَ بعدُ،
عيناكَ ..
عيناكَ
إبرةٌ طائشة
تأنسُ لرؤية قلبيَ اليابسِ/ العدمِ/ ا
لْ
مُ
نْ
هَ
ا
رْ

صباح

القصاصة (٢)

من عينيكِ ينسكبُ النبيذ

برداً وسلاماً
ينسكبُ النبيذُ
من عينيكِ
قَ
طْ
رَ
ةً
قطرهْ ..
ليبعثَ قلباً تهشّمَ كآنيةٍ
.. من نَفَارْ..

محمود

القصاصة (2)

بُكاءٌ

سِراعاً سِراعاً تلهثُ الوردةُ الآن وتبكي على فجرٍ يُغني مع الرّدى
سِراعاً سِراعاً تلهثُ الوردةُ الآن وتبكي على فجرٍ يُغني مع
سِراعاً سِراعاً تلهثُ الوردةُ الآن وتبكي على فجرٍ يُغني
سِراعاً سِراعاً تلهثُ الوردةُ الآن وتبكي على فجرٍ
سِراعاً سِراعاً تلهثُ الوردةُ الآن وتبكي
سِراعاً سِراعاً تلهثُ الوردةُ الآن
سِراعاً سِراعاً تلهثُ الوردةُ
سِراعاً سِراعاً تلهثُ
سِراعاً سِراعاً
سِراعاً

صباح

القصاصة (٣)

سماء..ولكن.

سأنهارُ حتماً حينما تعطسُ السماءُ يوماً بلا رعدِ
سأنهارُ حتما حينما تعطس السماء يوما بلا
سأنهارُ حتما حينما تعطس السماء يوماً
سأنهارُ حتما حينما تعطس السماءُ
سأنهارُ حتما حينما تعطسُ
سأنهارُ حتما حينما
سأنهارُ حتماً
سأنهارُ
سأنهارُ حتماً
سأنهارُ حتما حينما
سأنهارُ حتما حينما تعطسُ
سأنهارُ حتما حينما تعطس السماءُ
سأنهارُ حتما حينما تعطس السماء يوماً
سأنهارُ حتما حينما تعطس السماء يوما بلا
سأنهارُ حتماً حينما تعطسُ السماءُ يوماً بلا رعدِ

محمود

القصاصة (٣)

حريق الظلال..

حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ تَسامى فَسالتْ جِبالٌ مِنَ العشقِ تجْري
حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ تَسامى فَسالتْ جِبالٌ مِنَ العشقِ
حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ تَسامى فَسالتْ جِبالٌ مِنَ
حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ تَسامى فَسالتْ جِبالٌ
حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ تَسامى فَسالتْ
حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ تَسامى
حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ
حريقُ الظِّلالِ
حريقُ
حريقُ الظِّلالِ
حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ
حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ تَسامى
حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ تَسامى فَسالتْ
حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ تَسامى فَسالتْ جِبالٌ
حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ تَسامى فَسالتْ جِبالٌ مِنَ
حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ تَسامى فَسالتْ جِبالٌ مِنَ العشقِ
حريقُ الظِّلالِ الحزينهْ تَسامى فَسالتْ جِبالٌ مِنَ العشقِ تجْري

صباح

محطة القطار- مشرع بلقصيري

خمدت أنفاس القطار هنيهة بمشرع بلقصيري، فطفقتُ أفتشُ عن تتمة الرسائل، ولكن يبدو أن محمود لم يتلقَّ جوابَ الرسالة التاسعة من صباح، فكتبَ الرسالةَ العاشرة...

الرسالة رقم (١٠)

هل تعلمين يا صباح أخذتْ زوجتي زينب الأوراق والرسائل ثم أعادتْها بغضب إلى المذكرة، فتحتُ عينيّ بتثاقل وتكاسل، ثم نظرتُ إليها متثائبا كقطة تستيقظ من قيلولة لذيذة، كانت زينب بضّة الوجه حمراء الوجنتيْن مثل طفلة غجرية: في أنفها خالٌ بديع يقسو على فؤادي كلما أمعنتُ النظر في صفحة وجهها الإهليليجيّ، وفي عينيها وداعة وبراءة، قلبُها صافٍ غُسِلَ ما فيه بالوَجْدِ والدمع الزُّلال، أجملُ ما فيها صمتُها الطويل لحظةَ بكائها ونشيجها، وأقبحُ ما فيها صمتُها النادر لحظةَ انطلاق لسانها الطويل الذي لا ينقطعُ كَشَلاّلٍ هائج، تجلسُ المسكينةُ بجانبي على حافة السرير دامعة العينين، وفي رأسها مرجلٌ يغلي يريد أن ينفجر، زفرتْ زفرات متقطعة، ثم صاحتْ والبكاءُ يخنق كلامها:

- والله يا محمود ما فارقتْني شكوكي وقد تيقنتُ منها الآن..!

أعادتْ عينيها إلى الرسائل فقرأتْ:

"هلْ أقولُها كما قُلتَها أنتَ في مثل ذاك اليوم البئيس: ما ألذَّ النسيانَ في مثلِ هذا! لكن أووووف قيلَ لي ما سأقول،لم أتهيأْ لهذا النسيان الذي يستيقظ الآن في حَيِّزٍ من ذاكرتي..لم أتأهبْ لجلال النسيان! أأَصبحَ ما كانَ بيْنَنَا حِذاءً قديماً مُخْجِلاً لابدَّ من نسيانِه؟ ولعلكَ تقول: ما الذي كان بيننا أصلاً حتى يُنسى؟ أريني ماذا يفعل الإنسان إذن لِينسى؟

هلْ أقولُها: بيننا يتوغل شبحُ الخيانة لِطَرَفٍ مَظلومٍ هو زينب المسكينة..؟

هلْ أقولُها:يا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنا؟ أَجَلْ، مَرْقَدِنَاااآآ العجيب..؟؟

هي أسئلة قصيرة إذن يا محمود والأجوبة ستكون أَجْمل لو كانت أَقْصَر، ولا جرَمَ أن الأسئلة بيننا ستتناسلُ منذ الساعة، وتفرّخُ أجوبة عرجاء، وذلك ما يمضي به القول إلى غير انتهاء..! "

أسرعتْ زينب في القراءة، وهي تُمَرّرُ الحروف والكلمات على مضض، ثم أَرْسَتْ عينيْها في قولي: "قد كنتُ في البدء أَتّيَهَ من قوم موسى كما نعلمُ معاً، حينما جرفَنِي شوقٌ أعمى لِلُقياكِ في مدرج الجامعة، أتذكُرين؟حينها لم أستطعْ دفعاً لأشواقي، سَاقتْنِي قدماي إليكِ في يوم عاصف أُحسُّ برياحه الآنَ وكأنها تتوغل في أعماقي، وتُدحرجُنِي في الفراغ فأَهِيمُ بلا هدىً لا أدري إلى أين أذهب.آه يا صباح الوديعة! ما أَبْعَدَ ما فات وما أقربَ ما يأتي! السياراتُ على الطريق التي تربط تِيكِوِين بالحي المحمدي تسارع الزمن في كل الاتجاهات، والمارة يسرعون الخطى كالنمل هرباً من صفعات الرياح الغاضبة، وأنا الدجاجةُ الثرثارةُ العوراءُ تَتَنَازَعُنِي كلُّ السكاكين لتقدمني قربانا للحب المثالي الأعور.. آه.."

اشتدّ الضيق في صدر زينب، واضطرمَ الغضبُ والحنقُ في رأسها، فقالت لي ودخانُ حريقِها يخرجُ من أذنيْها، ورائحةُ الغيرة تفوح من كل جسمِها:

- لقد كنتما إذن عاشقيْن مُهذّبيْن وديعيْن إلى أبعد الحدود! مَنْ تخاطبُ بهذه الرسائل أيها الجائع؟ تكلّمْ أيتها الدجاجة الثرثارة العوراء؟!

- .....

أعادتْ قراءةَ مَقْطَعٍ من الرسائل، ونَظَرَتْ إلى رسالة أخرى كما تنظرُ امرأةٌ إلى ذَهَبِ امرأةٍ أخرى أو إلى لِبَاسِ امرأةٍ لاَ قِبَلَ لها به وتَفْضُلُهَا به، كانتِ الغيرةُ السوداءُ تأكلُ قلبَها ولسانَها وعينَيْها، وتعمي بصيرتها، وتُؤَجّجُ غضبَها، فقرأتْ وهي تضغطُ على العبارات والكلمات ساخرةً:"هل حقّاً كان قلبي اللّدُودُ قد امتلأ بنسائمِكِ وطفحَ بكِ، وقد طال البكاء كالأطفال ولم يَعُدْ بُدٌّ مِنْ سَكْبِ ما بهذا القلبِ اللّعين..؟ هل تذكرين يا صباح كم كنتُ طفلا مُهذّباً وأنا أدحرجُ الكلمات من حلقي؟ وأنا أقول لك وقتذاك قرب النخلة اليتيمة التي تزين مدخل الكلية، وأنتِ تفرِكينَ أصابعكِ، ومعها قلبي:

- لماذا تصمُتين؟
- ولماذا تصمتُ أنتَ..؟
- ..لا شيء..
- قُلْ ولا تَصْمُتْ.."

تابعتْ زينب وقد انقبضَ قلبها واشتدَّ انْكِمَاشُه:

- يا سلاااااام! ّيبهْ؟!:".. ولكن قبل أن تنصرف عني، فأنا كما تعلمُ مريضةٌ بِهَوَسِ التوحّد بحريق حُبّك، فَلِمَ لا تستمرُّ في إشعالِ فُرْنِ القلوب؟كان عليّ أيها الذئبُ أن أحرقكما معاً على صعيد واحد، أليس كذلك أيها السافل؟
- أنا آسفٌ إلى حدّ فظيع يا زينب إن كنتُ قد أسأتُ ..
- إن كنتَ قد أسأتَ..؟؟ لا تعتذرْ عما فعلتَ.

- ..وماذا فعلتُ لأعتذر؟
- من تكونُ صباح التي تراسلُها في هذه الأوراق والرسائل؟
- لا أعرفها.
- كذّاااآب!
- لا أعرف ولا أستطيع أن أعرف!
- وماذا تعرف إذن؟؟
- لا أعرف!
- وماذا تعرفُ إذن أيها الجائع: الكذبَ والحبَّ السخيفَ مثلكَ؟؟
- قلتُ لكِ:لا أعرف، ألاَ تسمعين؟ألاَ تفهمين؟؟

غرقت زينب في دموعها، فصاحت وهي ترتعد:

- كذّاب..منافق..تكلَّمْ أيها الخائن، مَنْ هي صباح؟ ما شكلُها؟هل هي أجملُ مني..؟؟ أَجِبْنِي أيها الجَبَان..
- أُقسمُ لكِ، صدّقيني أنا لا أعرفُها ولا أعرفُكِ أنتِ أيضاً.

سمع الطبيب صياحَها، وشِجارنا، فجاء مهرولا في دهليز المستشفى العريض وهو يتفقد أزرارَ وِزْرَتِه، والمِحرارَ الذي في جيبه وعلبة الأقراص المهدّئة، ويُحاذرُ أن تَسقُطَ السّماعة من عنقه، ثم صاح في وجهِ زينب:

- ألا تشفقين على زوجك ؟ اِنْصَرِفِي من فضلكِ حالاً حتى لا تتأزم حالُه وتزداد سوءًا، هيا غادري الغرفة أرجوكِ يا مدام..

- ولكن ..دكتور..!

استدعى مُمَرِّضَتَيْن في الحال، فخرجتْ زينب من غرفة العناية المركزة، وهي تُشيِّعُني بنظراتٍ حزينة ودموعٍ لا تكفكفُ عن الاندلاع من حلقها، ثم لَوّحَتْ بيدها، مُودِّعةً من خلف الباب الزجاجيّ في أسى عميق، وأنا ممدّدٌ على السرير كَجِيفةٍ قديمة هامدة، وغارقٌ في حيرتي وظمئي الشديد وأنينِ بطني المُقَرْقِرَةِ منذ الضحى، لاسيما وأن الممرضة المتكاسلة المكلفة بي وبإطعامي ورعايتي قد نَسِيَتْ كعادتها أن تحضر وجبة الغذاء، لِتُسْكِتَ جوعي هنا في هذا المستشفى.أردتُ أن أُوَدِّعَهَا ..سَأُوَدِّعُها وإن كنتُ لا أحسنُ الوداع..! لكني عدتُ لأُلُوذَ وأذوبَ في صمتي الأبديّ.

محطة القطار- أصيلة

انقدحت كُلُّو في ذهني من جديد مثل بَرْقٍ شاردٍ يومض على بحرٍ مهجور..أحيانا حينما كنا نذهب إلى مضايق تودغى، ونتمشى على المياه الباردة حافيِيْ القدميْن، وننصتُ ليس لخرير المياه فحسب، بل لخرير قلبيْنا وهما يتماهيان فأودُّ لو يتوقف الجدول عن الجريان لأن خريره يفسد هذا الخرير الفائر فينا ويقلقه، أتوقفُ في قارعة الجدول البارد لأرفع بصري إليها..إلى..إلى شيء فيها يخدرني فأصير كتمثال منحوت من صفائح جبال مضايق تودغى المحيطة بنا..تتوقفُ كُلُّو لتوقِّفي فتستديرُ نحوي فيستديرُ معها الموت، فتنفذُ نظراتُها الخضراء إلى فؤادي فَتُتْلِفُه فأدرك أن ساعةَ التوحد قد دَنَتْ، وطقوسَه قد أَوْشَكَتْ، فأنسى أنها أختي التي تكبرني بعشر سنوات..يا إلهي ما هذا العشقُ الأحمق الذي يوشكُ أن يكون مرضاً..؟ إنه وجْدٌ فاحشٌ غير معقول..! الفتياتُ الناعمات كثيراتٌ في أسفالو، هذه زْبَا وهاته شْطُّو وتلكَ حكيمة وأخرى جويرية فلماذا لا أحب إحداهن وأريح نفسي من هذا الجنون؟ لكن رغم ذلك في هذه اللحظة التي أحس وكأنني أتمرغ على بساط من الزئبق لا أحب أن أوطّن نفسي على أنها أختي، أكره تذكر ذلك لأني أشعر بالامتلاء والحلول في هذه المضايق، إنها ليست مضايق! إنها مفاتحُ ومعارجُ تودغى إلى السماء.. إلى الله.. إلى التلاشي في نقطة ما في الكون..

قلتُ لها والماءُ البارد يقتحمنا من تحت أقدامنا الحافية، ويرعش ركبتيْنا وأوصالنا وأعماقنا:

- اغمضي عينيك، لديّ هدية لا تُردّ..

فأرسلتُ يدي إلى قلبي مثل كمّاشة لأستأصله، فانتزعتُ قلباً منْ ورق فقدمتُه لها..ففتحتْ عينيْها لترى، فابتسمتْ وهي تخفي من خلف أناملها البلورية ضحكة داعرة لا تناسب مقام الفراشات، فقالت وهي تغالب هذه الضحكة:

- إذن أنتَ إنسان من ورق أو ربما من فراشة..

قرأتُ لها من شِعر مانويل ألطولا غيري لأنها كانت تحب شِعره:

Mi forma inerte, grande como un mundo,

No tiene noche alrededor ni día,

Pero tiniebla y claridad por dentro

Hacen que yo,que tí, vivamos.

Mares y cielos de mi sangre tuya

Navegamos los dos.No me despiertes.

No te despiertes,no.Sueña la vida.

Yo también pienso en mí cuando te sueño

Y robo al tiempo todas mis edades

Para pobler las íntimas moradas

Donde estaremos juntos siempre,siempre.

شكلي خامد وهائل مثل عالَم،
لا يمتلك حوله ليلا ولا نهارا
لكن الظلمة والصفاء في الداخل
تجعلاننا أنتِ وأنا نحيا.
بِحار دمي وسماواته لكِ
نبحر نحن الاثنين.لا توقظيني.
لا تستيقظي،لا.احلُمي بالحياة.
أنا أفكر فيّ أيضا حين أحلم بك
وأسرق من الوقت كل أعوامي
كي أعمّر المنازل الحميمة
حيث سنكون معاً دوما وإلى الأبد.

"أنتَ إنسان من ورق أو ربما من فراشة..؟؟" ..نَعَمْ هي امرأة من ضلع فراشة..كنتُ دائما أقول إنها أختي في البيت الطيني في أسفالو فقط، أما هنا حيث هذا الهواء المنعش وهذا البَهَاء اللانهائي، وهذا الحرير، وهذه الجبال الشاهقة التي تشهق لها روحي، وتتأملنا من فوقنا بابتسامتها الصخرية العذبة التي تشبه ابتسامة أبي، مهما أَخْفَيْتِ ما بصدرك أيتها الجبال فأنا أراه بعين قلبي..يجب

أن أكون مع أختي هذه اللحظة كعاشقين منسيين في جزيرة مهجورة..عاشقان أيتها الجبال..عاشقان، هل سمعتِ؟؟

- سمعتُ ماذا؟

قالت أختي كَلُّو وقد انحنتْ إلى الماء لتغرف غرفة بيدها، وترش وجهها، ومعه قلبي، ثم كشفتْ عن أسفل ساقيها حتى لا يتبلل إزارها التنغيريّ الأبيض المعقود في أعلى كتفها الأيمن، لاسيما وأن أقدامنا غطستْ في مجرىً غائر، ثم اخترقْنا الماء البارد عكس مجرى الجدول.

- لا.أنا أُحدِّثُ الجبال..
- وهل سَمِعَتْكَ حين حدَّثْتَهَا؟
- أَجَل..
- فماذا قالت لك؟
- نصحَتْنِي بالابتعاد..
- إنها محقة..هيا بنا نبتعد من هنا يا أخي..لقد أناخ الظلام فَلْنَعُدْ إلى أسفالو..

وكَقِطٍّ انتصبَ شَعْرُه وهو يتأهب للشجار والعِراك، قلتُ لها:

- لن نعود حتى أرى عينيْكِ الخضراوينْ..

تَوَرَّمَتْ عيناياَ من البكاء، ابْيَضَّتْ عيناياَ منَ الحُزْن، انْمَحَتا مِنَ البكاء، فأمسكتْ بيدي ورَبَّتَتْ على كتفي بنعومة وليتها فعلتْ مثل ذلك مع قلبي الفائر، فقالتْ مبتسمةً ابتسامةَ أبي وابتسامةَ جبال تودغى من حولنا:

- لن ترى عيني في الظلام يا موحى، هيا بنا إلى أسفالو، أمك ستغضب، ستقول لك كالعادة: لقد شغلتْكَ هذه النصرانية عن إحضار الحمار وروث البهائم على ظهره..لا تصحب النصرانية مرة أخرى..! أليس كذلك؟ أَنَسِيتَ؟
- كلا، لم أنسَ..أتعلمين ما الذي أكرهُهُ فيك؟
- وهل ثَمَّةَ ما تكْرَهه فيّ؟ ما هو؟
- أنكِ أختي..
- ولماذا؟
- لا يجب ألا تكوني كذلك..
- لماذا؟
- يجب أن تبتعدي حتى لا أحترق بك..

لَوَتْ أذني اليمنى بدعابة، وقالت لي محذرةً:

- سأنزعها منك وألقيها في واد تودغى وأجعلك تلحق بها لأنها لا تسمع..لا تُعِدْ مثلَ هذا الكلام الذي يكبُرُك يا شيخ الفاسقين الصغير! أنتَ أخي الصغير الوحيد الذي سأحترق بغيابه..لا تنبسْ، وهيَّا بنا إلى أسفالو..

***

لنْ أعلّقَ على كل شيء حتى لا أكونَ أَشْرَبَ مِنَ الرّمْل، وإنما سأنشغلُ بالدموع التي تُدَاهِمُنِي الآن، وتتزاحمُ في حلقي وتصرُّ فيه على الاندلاع، وتُلحُّ عليه

بعد كل ما حدث مع كْلُّو، وسأتركُكَ الآن مع الأنفاس الأخيرة لِمَا جَرَى بين صباح ومحمود..لاسيما وأن القطار الآن بلغ محطة أصيلة، أصيلة البيضاء بياضَ قلبِ أختي كْلُّو، أرى الآن من خلف نافذة القطار بساطَ البحر وهو ينساب ويتلوّى ويتمايل وكأنه سَيُجْمَعُ في الهواء لِيُنفَضَ ثم لِيُطْوَى كما يُطوى السجاد..ياآآآه..! يا إلهي.. سجادٌ أزرق على طول البحر..! سيتوقفُ القطار الآن لساعة كاملة بسبب عطب تقني كما أخبرتْ بذلك السيدة التي تتحدث في مكبر الصوت عند كل محطة..

لم يَبْقَ من الرسائل والأوراق إلا نَزْرٌ يَسِيرٌ منها، لقد عثرتُ على ورقة يبدو أنها منسوخة عن ورقة أخرى مرقونة، وفي رأسها إضافات بالقلم الأزرق، وفي مطلعها بَتْرٌ كثير، وفراغٌ يشبه هذا الفراغ الذي يقتحمني اللحظة، وأنا أظنُّ أني لن ألقى أختي كْلُّو في طنجة..

نسخةٌ لملخّص ما ورد في مَحضَر تحقيق الضابطة القضائية معي وأنا رهن الحراسة النظرية

.....

.....

.....

- اِسْمُكِ صباح أليس كذلك..؟
- بلى سيدي..
- النسب؟ اسم الأم والأب؟ المهنة؟ السكنى؟
- الإسم كاملا: صباح الأسود، الأم: اسمها الحالي فاطمة والقديم فيرونيكا، والأب: الهادي، والمهنة الحالية: ممرضة، والسكنى: رقم ١ إقامة الكوثر..
- ماذا تعرفين عن الأستاذ "محمود الأصفر"؟
- رجلٌ عشّش الحبُّ في صدره، والجنونُ في عقله ولسانه!
- لا أسأل عن قلبه، بل عمّا يربطُكِ به؟
- علاقةٌ تعودُ إلى الماضي حيثُ يجبُ أن تبقى.
- نحن لا نسألكِ عما يجب أن يكون، وإنما عما كان بينكما في هذا الذي تدّعين أنكِ ترغبين في نسيانه!
- حسناً.. لقد نَشَبَ حبٌّ بيننا حينما كان طالباً بجامعة ابن زهر بأكادير، وبعدَه لـمّا كانَ يُدرّس في مدرسةٍ خصوصية وفي معهدٍ

خاص للتكوين المهني، وكنتُ حينها مُمَرِّضةً تحتَ التمرين في مصحّة بأكادير، تواعَدْنا على ما يشبه الزواج، لكنه تزوجَ فيما بعد، لما استحال زواجُنا لأسباب قاهرة وطارئة، وانتهى الأمر حينما..

- كفى.نعلمُ هذا ونعلمُ أَمْرَ زواجه، لدينا محضر عن ذلك وقد استمعنا لزوجته. ماذا عن رسائلِكِ معه فيما بعد..؟
- في الحقيقة لقد.....
- لقد ماذا؟
- لا شيء سيدي يستحق أن يُسمَعَ فيما سَتَسْمَعُ!
- تكلّمي!؟
- .....

(كنتُ في هذه اللحظة أبكي بمرارة وبلا انقطاع، ولم أَقْوَ على رفع رأسي أمام المحقّق الأصلع الذي كان أمامي..)

- تكلّمي قبل أن تندمي..
- .....
- سينفجرُ غضبُنا فَتَنْدَمِي.
- واخّا آلشّافْ، في الحقيقة... كان محمود قد تألم كثيرا لحاله التعيسة في البطالة والشقاء والتنقل بين المؤسسات الخصوصية في أكادير والرباط والدار البيضاء.. وهذا..و..وهذا ما عجّل بحمله إلى..
- إلى المستشفى؟ نعرفُ هذا.لماذا لَحِقْتِ به من أكادير إلى هنا؟

(مسحتُ دموعي، آه يا حبيبي محمود، لكن المحاجرَ والمآقي لم تَجِفَّ بَعْدُ، ولا أظنُّها تَجِفُّ بعد أن قتلتُ روحي وقِطْعَةً من نفسي..)

- ما زال في قلبي شيءٌ منه، فلم أستطع أن أدفعَه..كنتُ ضعيفة لأني..لأني..
- لأنكِ ماذا؟ تكلمي..
- لأني ما زلتُ أحبُّه..
- رغم ما تعلمينَ من زواجِه بزينب التي تعرفينها ولا تعرفُك؟؟ ألستِ أنتِ المجنونة لا هو؟ ألا تخجلين أنكِ سَتُدَمّرِينَ عُشّاً بين زوجيْن..؟؟
- حاولتُ أن أغالبَ هذا الجنون، لكن قد صادفَ حبُّه فراغا فظيعا كنتُ أعيشُه وقتئذ، الحب يا سيدي أعمى لا يَرَى!
- ..نعود إلى الرسائل، ما قصتُها بالضبط..؟؟
- الأمر يا سيدي أشبهُ تماماً بمسلسل ميكسيكيّ -كما كان يقول محمود دائما وهو يسخر مني-، فمنذ علمتُ بوجوده هنا ومنذ رسالته الأولى لي، انزلقتُ في الحب من جديد رغما عني، فتدفقتِ الرسائلُ بيننا.. ورغم جنونه فقد كان يحمل في رأسه ذاكرة فِيلٍ إفريقيّ، كان يتذكرُ كل جزئيات هذا الحب، وهذا ما أشعلَ رمادَ الماضي في قلبي، فاحترقتُ به، وو.....ربما هذا كل شيء.....سيدي.
- وماذا عن الرسالة الأخيرة؟

- كنتُ أنا الممرضة القائمة على علاجه، وفي نفس الوقت نتراسلُ وزوجتُه توصيني برعايته دون أن تعلمَ بأمر رسائلنا، فلما كتبَ رسالتَه الأخيرة التي قال فيها".. خرجتْ زينب من غرفة العناية المركزة، وهي تُشيّعُني بنظراتٍ حزينة ودموعٍ لا تكفكفُ عن الاندلاع من حلقها، ثم لوّحَتْ بيدها، مُودّعةً من خلف الباب الزجاجيّ في أسى عميق، وأنا ممدّدٌ على السرير بِكَيفةٍ قديمة هامدة، وغارقٌ في حيرتي وظمئي الشديد وأنينِ بطني المُقَرْقِرَةِ منذ الضحى، لاسيما وأن الممرضة المتكاسلة المكلفة بي وبإطعامي ورعايتي قد نَسِيَتْ كعادتها أن تحضر وجبة الغذاء، لِتُسْكِتَ جوعي هنا في هذا المستشفى.."وجدتُها في المذكرة حينما أحضرتُ إليه طعامَه متأخرة بسبب مكوثِ زوجته الطويلِ معه، وكنتُ أتسلَّلُ إليه في حجرةِ العلاجِ مترددةً على استحياء، ظننتُ أنه كان نائما، فَلَمْ أشأْ أن أُوقِظَهُ، لكني حينما لمحتُ أقراصاً مكدسة تحت وسادته واللعابَ في فمه، والابتسامةَ الساخرة المعهودةَ قد انطفأتْ في ثغره، وآثارَ خدوشٍ حمراء حول عنقه، أيقنتُ أنه قد ابتلع نصف علبة الأقراص دفعةً واحدة!

- ألستِ أنتِ التي أجبرتِه على تناولها؟

- لم أفعل..!

***

اِمْتَلأتُ بالحزن.إنني الآن أبكي، بَكيْتُ مختنقة بالدموع المندلعة من حلقي، جَلَدَني الرجالُ الثلاثةُ بنظرات مُريبة.بكيْتُ وابتسمتُ بلا مناسبة، لكن البكاء كان أقوى.تصايَحَ شيءٌ ما بداخلي.همستُ كَشَاةٍ مُنْهَكَة:

- يا إلهي سَاعِدْني على النسيان!

حدّقَ فيّ عميدُ الشرطة طويلا، ثم حوّلَ بصرَهُ مستغربا تِلقاءَ الشرطيّيْن الآخريْن، ثم هَبَّ من خلف المكتب واقفاً، وقال لي مُنهياً الاستنطاق:

- قد تَمَّ إيداعُ الجثة في مستودع الأموات، إلى حين توصل النيابة العامة بالمحكمة بتقرير الطب الشرعي لنتأكد من ملابسات موتِ محمود في مستشفى الأمراض العقلية. وَقِّعِي أسفل المحضر، بعد أن تتأكدي من أقوالِكِ.سَتظلّينَ هنا في برشيد رهن الحراسة النظرية لاستكمال التحقيق..

- وَاخّا آ شّافْ..

***

نسخةٌ لملخّص ما جاء في لقائي مع المحامي

.....

.....

.....غاص قلبي في كَمَدٍ مُدْلَهِمّ، أمي وأبي لا يعلمان شيئا مما جرى، بَكَيْتُ بكل حُرقةٍ أَحْرَقَتْ قلبيَ الثَّمِلَ بمحمود..محمود الذي اكتشفتُ فيما بَعْدُ بعدَ قُدومي إلى المستشفى الذي يرقد فيه أنه كان يعاني من انفصامٍ حَادّ في الشخصية، بسببِ صدمةٍ كان قد تعرّض لها في طفولته.....

قال لي المحامي - والشرطيُّ الذي حقّق معي يُحَدِّقُ فينا بعينيْ الصقر الغاضب، ويذرعُ المكان ذهابا ومجيئاً- :

- صافي ما تْبكِيشْ آ صباح..اللهْ كْرِيمْ آبْنْتِي..اللهْ كْبِيرْ..
- وو...ولكن..؟
- ولكن.....، أَلَمْ تُفَكّري في أمرِ زينب زوجتِه؟
- ولكن.....، سيدي المحامي أنا لا أريد أن أبقى هنا..؟
- هل تعلمين أن وضعكِ أصبحَ صَعبا..؟

لَمْ أُجِبْ، لأنني لا أستطيع.نَدّتِ العَبَرَاتُ الأسيرة من حلقي،كنتُ أعلمُ- وربما يعلمُ هو- أن جدران السجن ستكون مرايا لما يضطرمُ في صدري إلى

الأبد..لكنه أَخْرَجَ من جيبه جزءً مبتوراً من رسالةٍ من رسائل محمود قد وجده في مذكرة محمود، وربما كان قد نسخَهُ بخط يده، فَمَدَّهُ إليّ بِيَدٍ مرتعشة، ثم رفَعَتُ إليه بصَري الشاخص الجامد، والدموعُ تتدفقُ من حلقي بلا هوادة وتُغطّي عينيّ الدعجاوين وخدّيْ الأسيلين دون أن أنبسَ، ولماذا سأنبس؟ أطَلْتُ النظرَ وأَمْعَنْتُهُ في الجزء المبتور من الرسالة، فإذا فيه ودُموعِي تتساقطُ -كالرّذاذ التّائه- على كلماته وأَحْرُفِهِ وأسْطُرِه:

"وبعد..

أُورُورَا أم أناديكِ باسمك المغربي: صباح؟

لماذا عُدتِ؟ هل جئتِ مجددا لتحتلي قَلْبِي كما احتلَّ أجدادُكِ أرضَ آبائي وأجدادي؟سأُلقي عليكِ قولاً ثقيلا فَشَرِّعي أُذُنَيْكِ لِتَسْمَعِي أو لِتَتَسَامَعِي..أقولُ لكِ وأنا الآن أتأملُ فراشةً جائعةً تُفسدُ بَهَاءَ زجاجِ النافذة بتردّدها المُزْعِج:

أما آنَ الأوانُ لنرتدي قلبيْنا العجوزيْن..؟ ما أطيبَ البكاءَ في حضرة النسيان ولكنَّ المكانَ للأسف ليسَ لائقاً لسقوطِ دمعة..! هل أسكبُ قلبي عن بكْرة أبيه دُفعةً واحدة لِتَجِدِي فيه ما لا يُوصَف ولِتُجَفّفِي قَلَقَكِ القديم؟ ما رأيُكِ أن نجعلَ الماضي معاً يمشي الآن على قَدَمَيْن؟

.....

.....

أقولُ ما أقولُ وأنَا الآن أَمَامَ مِرْآةٍ صغيرة على المنضدة بجانب السرير أراني فيها وأراكِ، والسماءُ من النافذة -آهٍ من السماءِ ومنكِ!- مسقوفةٌ بالكآبةِ

والفراشات، وها أنا أُحَدِّقُ في سذاجةِ الزمن.. آه..لقد امتطيْنَا صهوةَ الغياب ردحاً من الزمن غيرَ يَسيرٍ، أليسَ كذلك؟ فَمَا جَاءَ بكِ من كهفِ الغياب..؟ ما رأيُكِ في هذا النسيان الذي تَوَسَّدْناهُ زَمَناً..؟ هل أصبح النسيانُ وِشَاحاً في صدركِ لا على صدركِ؟ آه..لو تَغْسِلُ بِحَارُ الأرض هذا النسيان..!

.....

.....

لنْ أنسى أبداً نَصِيحَتَكِ الباذخة لي ما حَيِيتُ..آه..لو استطعتُ لَكَتَبْتُهَا بماءٍ من ذهب:

"أيها الجَمَلُ الظمآنُ اِشْربْ..اِشْرَبْ يا محمود فما أظنُّكَ ترتوي..اِشْرَبْ ..اِشْرَبْ..فهلْ مِنْ ظَمَإٍ إلا إلى الماء؟"

.....مَحَبَّتِي لكِ يا صباااآح "السوداء" لا يُعادلُها إلا كُرهُ إبليس لآدم، ولأنكِ تحبين الفراشات سأظل أخشى الفراشات...

مع تحيات الجائع

والخائف من الفراشات إلى الأبد:

محمود غير المحمود

نسخةٌ لرسالةِ اعترافِ المحامي

تحية طيبة صباح، وبعد:

بلا مقدمات، و"بْلاَ مَا نْغْطِّي الشّمْسْ بْالْغْرْبَالْ" سَتَدْخُلِينَ السجنَ إلى الأبد يا صباح، لأن الشرطة القضائية ربما أدركَتْ بما توفّرَ لديْها من دلائل وقرائن وشهادات أنكِ أنتِ مَنْ قتلْتِ محمود بدواءٍ خاطئ، ومادة سامّة تعمَّدْتِ أنْ تَدُسّيهَا في الأقراص والمهدّئات الخاصة بعلاجه بعدما يَئِسْتِ مِنْ حبِّه، فتناولَهَا بلا تردد..هل كان محمود يُدْرِكُ أنَّكِ كُنْتِ تُحاولينَ قتلَه؟ أم هو مَنْ أَسَالَ لُعابَ الموتِ على نفسِه فَقَتَلَ نفسَه عمداً برغم إدراكِه ومعرفتِه للدواء الذي يُداومُ عليه؟ هل انتحرَ..؟ لا أدري.

كلُّ ما أدريه- وأنا محاميكِ الفاشل يا صباح المسكينة- أنني لن أقوى على الدفاع عنكِ..لن يطول سراحُكِ المؤقّت..اتخذي لكِ محامياً آخر..

وتقبلي مني خالص الاحترام والتقدير..

والسلام

محطة القطار- طنجة

أخيرا طنجة..! أخيرا عروس الشمال! أم أقولُ عروسُ عروسِ الشمال..؟؟ هديرُ القطار ونبضُه أخيرا سيتوقف بشكل نهائي. كنتُ شاردا في ما حدث لصباح المسكينة، فلم أنتبه للبنايات البيضاء ولوحات الإشهار الضخمة التي تمرُّ أمام ناظري وهي ترتدُّ وتتطاير إلى الوراء، لقد وصلتُ إلى محطة طنجة مع شفق الغروب، السماءُ صفراء والسُّحُبُ من تحتها كأنها خرفان أو أَجِنَّةٌ برتقالية تتمدد و تسبح في رخام أحمر، حوّلتُ بصري إلى هاتفيّ الذكيّ في يدي، سحبتُ بسبّابتي الصفحةَ الأولى و الثانية إلى يسار الشاشة، ثم استقر بصري على خبر عاجل في موقع إخباريّ مغربي..ياااااه..! عنوان عريض مُدَوٍّ يبرقُ في رأس الصفحة الزرقاء: "صباح: ممرضة عاشقة في سطات تقتل حبيبها القديم بعقاقير منتهية الصلاحية"...يا إلهي ما هذا الجنون؟ هل تكون هي..؟ إنها نفس صورة المرأة التي نسيت الحقيبة في مقصورة القطار..هي بشحمها و لَحمها ومعطفِها الأحمر..! ما هذا؟ هل هي نفسها صباح التي في الرسائل؟؟ أووووف.. الحقيبةُ ما زالت في يدي، يدي ترتعش كَفَأْرٍ آليّ دون أن أقوى على ضبطها، ورجال ببذلة رسمية أنيقة هناااك أي نَعَمْ..إنها الشرطةُ من خلف النافذة هناااك، في آخر رأس القطار، لا أدري ماذا ينتظرون ومن ينتظرون..؟ خفتُ كثيرا، استبدّ بي الهلع، لم يعد قلبي كجناح فراشة بل انمحى وزال من مكانه، لقد بلغ القلبُ الحنجرةَ فأدخلتُ يدي في فمي وحاولتُ رده إلى موضعه، جمعتُ كل الرسائل

والقصاصات وكدَّسْتُها بسرعة في الحقيبة وكأنني أواري فضيحة أو خطيئة تحت الأرض وأهيل عليها التراب، حاولتُ جاهدا إلقاء الحقيبةِ أعني..أقصدُ الجمرةَ من النافذة أو في أقرب سلة مهملات، أو في مرحاض القطار القريب من المقصورة، لكن يد الشرطي كانت أسبق إلى الحقيبة ويدي والرسالة الأخيرة الخاصة بمحامي صباح، فقال لي وابتسامةٌ ساخرة ترتسم في وجهه: "ماذا بداخل الحقيبة؟ قِنّبٌ هندي أم مغربي..؟" خفق قلبي كَطَبْلٍ مُمَزَّقٍ..صرختُ بأعلى صوتي ويداي مصفّدتان خلف ظهري: "دعني أشرح لك، الحقيبة ليس فيها ما تظن، ليس فيها غير حزمة من الرسائل تحكي عن شخص اسمه محمود و امرأة اسمها صباح، وتحكي عن..."

رد الشرطي بحزم وهو يُقحمني بقوة في سيارة الأمن الوطني كما يقحم معلّبات لا تتسع لكارتون صغير:"ستحكي كل شيء ولكن ليس هنا، عليكَ أن تتم الحكاية فيما بعد .."

وبعد أن دفعني كما تُدفعُ شاةٌ مربوطة القوائم، استدركَ قائلا:"أنت إذن تعرف صباحَ القاتلة..!؟"

لم أزرْ أختي كُلُّو المريضة بالقلب في طنجة، لم أرَها منذ عشرين سنة كاملة..نعم عشرين سنة بلحمها وشحمها..أختي كُلُّو، المسكينةُ أخبرتْ جميع نساء المدينة القديمة بطنجة بقدوم أخيها الوحيد موحى من تنغير ليزورها، لن أزور "سينما الكسار" و"سينما الريف" و"باب البحر" و" Gran Teatro Cervantes"، و"دار البارود" و"منتزه برديكاريس"، و"مغارة هرقل" و"ساحة

باب طياطرو" و"جنان قبطان"..لن أزور كل هذه الأماكن التي كانتْ تحدثني عنها كُلُّو حينما نتمشّى على جنبات حقول أسفالو وأنا أتأمل وجهها القمحيّ وهو يغوص في فؤادي، تُرى هل تغيَّرَ وجهُكِ الإهليليجي المبتسم دوما يا كُلُّو؟ هل ما تزال أناملُك تعشق ماء مضايق تودغى، ومحاورة الفراشات وشم النسيم والبرسيم كل صباح في حقول أسفالو وبساتينها؟ القطيعُ و..الحملانُ الوديعة التي كنتِ تحبينها كأولادك لم يمسسْها سوء، لم نذبح واحدا منها رغم إلحاح أمي على ذلك، لقد ماتوا جميعا، عثرنا عليهم في بئر معطلة بأسفالو..خمسون جثة متعفنة يَا "كُلُّو"..! يبدو أنكِ الآن قد أعدَدْتِ كل ما لديكِ لاستقبالي، حتى قلبها الشبيه بجناح فراشة قد فَرَشْتهُ كَزَرْبِيَّةٍ فَرَحاً بقدومي، لكن المسكينة لم تعلم أنني سأترجل في مخفر الشرطة وأتخفف من وعثاء السفر هناك لا عندها، لم تدرك أنني الآن في طريقي إلى أربعة جدران..ها أنذا قد تدحرجتُ كقنينة غاز من تنغير إلى طنجة، لأكتشف أنني سأستقرّ ككرة الغولف في حفرةٍ ذات أربعةِ جدرانٍ..

عليّ منذ الآن أن أكون مثل محمود المشؤوم، يجب أن أروّض عينيّ على الصمت وتأمل الجدران المتآكلة والمتصدئة والصراصير..عليّ الآن أن أتعوّد على استنشاق رائحة السجائر بفمي لا بأنفي، عليها ألا تهدر وقتها سدىً للبحث عني في طنجة، لن تجدني..لن تلقاني أبدا ولو بحثَتْ عني تحت الأرض في كل مصارف طنجة الصحية.. ابحثوا عنها هي، ابحثوا عن أختي كُلُّو..مَنْ وَجَدَها أو كان يعرفها فَلْيُخْبِرْها بذلك.. قلبُها المريض سيعيش أطولَ مني..سينبضُ دائماً..موحى لم يتغير يا "كُلُّو"..مازال طفلا يعشق عينيك الخضراوينْ كما كان،

لكن..لكن.. ها أنذا أدفع فاتورة رسائل صباح "السوداء" ومحمود المشؤوم، آه..لو ألقيتُ الحقيبة اللعينة من النافذة! كنتُ أعلمُ أنها لعينة! لو فعلتُ حينما كنتُ في سطات لما وَجَدْتُنِي الآن أبكي كطفل ماتَتْ أمُّهُ أمام عينيه في الحرب..!

هذا يكفي سأتوقف هنا، أشعر برغبة جامحة في البكاء، سأبكي أطول مما بكى محمود وصباح..سأستمتع ببكائي، أيها السجناء اِسْتَدِيرُوا، لا تنظروا إليّ، أخافُ أن يقول أحدُكم: "الرجالُ لا يبكون.." آحْ..سأبكي، أنا لستُ رجلا، أنا طفل، أنا فراشة..أليسَ كذلك يا كُلُّو..؟

آه..حَطَّتْ فراشةٌ مُنسلّةٌ من قضبان الباب على أحد الجدران وهي ترف بجناحيْها في خشوع، تأملتُها وكأني سأرسمها، فأخرجتُ الورقة الشفافة التي كانت في جيب سترتي حينما كنتُ في مراكش، فكتبتُ بخطوط كأنها هيروغليفية على جدار السجن المقابل لموضع سريري بخط أنيق أشبه بخط نذيرِ الشؤم صباح، وأنا أتمم القصة القصيرة التي بدأتها: "..فالتقطتُ أنفاسي لأمسح حبّات العَرَقِ عن جبيني الأسمر، ولأتأهب لِسَحْبِ حبيبتي التي دفنوها تحت التراب الأحمر من ثوبها الأزرق، وحينما.. لا أدري ماذا بعد حينما، ولا أدري لماذا أنا هنا؟ لكن الذي أدريه ربما هو أن فراشته الزرقاء قد ماتتْ فأصرَّ على أن يكون هو من يُغسِّلُها، فلما طفق يُغسِّلُها فجأةً امتدتْ إليه يدُها البلّورية من تحت الكفن الملقى عليها قبل الغسل، فأمسكتْ بيده، فقالت له: هل مَا زِلْتَ تُحِبُّنِي..؟"، ثم صعدتُ فوق السرير وكتبتُ في نقطة تماسّ السقف بالركن

المحاذي لباب الزنزانة قصيدة كنتُ نظمتُها عن كُلُّو، وقرأناها معا في أعلى جبال مضايق تودغى بصوت غنائيّ بكائيّ يخمدُ أنفاسَ الفؤاد:

صهيلُ فراشةٍ من تنغير

١.
كيفَ أرسمُ عينيْكِ
والقلبُ يرتلُ
وصايا القمر
والنايُ فيكِ
لم يرتوِ
منهُ المطر؟

٢.
قالتْ:
صَلاتُكَ تُرهقُنِي..
قُلتُ:
اُنظُري إلى سجّادِ السماء
كيما تتخفّفِي
مِنْ صهيلِ القلب!

٣.

اِرْفَعِي أناملَكِ-
أناملَ القمرْ،
وفتّشِي قلبي
ستندلعُ منه
دموعُ الحَجَرْ..

آه كمْ كُنْتِ رائعة يا كُلُّو أيتها الفراشة الزرقاء، وأنتِ ترددينَ شعرا غنائيا أمازيغيا بنبرتكِ الحلوة التي يتجمّد لها الكون:

آ يُولِينْوْ إيكَانْ آمْ الجّاجْ
كْدْغْ أَدِيرْزْ أُورِي تْلْحَامْ!
وَيْحَ قلبي الذي يشبه الزجاج
أخشى أن يُكْسَرَ فلا يُجْبَرَ!

موحى، طنجة ٢٠١٤

*****

رفيقُ موحى في السجن

لا أدري ماذا يقصد موحى بقوله:" فراشته قد ماتتْ فأصرَّ على أن يكون هو من يُغسِّلُها.."..على كل حال انتهى الجبَلُ الثقيل القاسي، هذا الحِمْلُ الثقيل جدا.. أخيرا انتهتْ رسالةُ موحى الضخمة؛ رسائل صباح ومحمود ورسالته هاته

التي أوصاني بها لأقدمها لأخته الموريسكية كْلُّو، بعد أن أبحثَ عنها في طنجة..لأنني قد خرجتُ من السجن بعد أن أَنِسْتُ بصحبة موحى هذا الإنسان الدّمث جدا..هذه الفراشة الوديعة جدا..لم أحسّ يوما أنني بين أربعة جدران، بل كنتُ أتحركُ داخلها وكأنني في مضايق تودغى - التي لم أرها- التي كَوّنْتُ لها في خيالي صورة كما حكى عنها موحى، أمشي على مياهها الباردة، وأشمُّ عبق الورود في بستان عامرٍ يطل على سماء زرقاء صافية..لن أنسى موحى أبداً.. سأواصل البحث عن كْلُّو في طنجة، فإن لم أجدْها فسأكتفي الآن بهذا الجمال الباذخ لمضايق تنغير، وأكتفي بالإصغاء إلى صهيل كل فراشة في بساتين وحقول أسفالو وأنا أبلّغها سلام موحى، ربما سأدفن كل هذه الرسائل في رَحِمِكِ يا مضايق تودغى، وسأقول لجبالكِ الباذخة: لا فراشة في الفراشة..! لا فراشة في الفراشة يا مضايق تودغى..!

سآخُذُ معي حفنةً من ترابكِ وحجارتك الملساء يا جبال المضايق لأحملها معي حينما أعود إلى طنجة، وأنا على يقين أن موحى سيُبعَثُ مِنْ جُنُونِه كطائر الفنيق، ويعودُ إليه عقلهُ الذي ضاعَ منه بين أربعة جدران..

نهضتُ من المكان الذي أظنُّ أنه هو نفس المكان المذكور في إحدى الرسائل والذي ربما جلس فيه موحى مع أخته كْلُّو و أظنني الآن أشمُّ فيه عبيرَ "كْلُّو" ورائحتها..أووف..لن أقوى على تسليم الرسائل لِكْلُّو في طنجة حتى لو وجدتُها، لن أُسَلِّمَها شيئاً..لن أُبْقِيَ في يدي رسالة واحدة، سَأُلقيها في أخدود أو مَغَارةٍ من أعلى جبال مضايق تودغى لِتُلَقّحَ رَحِمَهَا لعلها تصبح معارج إلى روح

تنغير، ومدارج للسالكين إلى الحبّ السرمديّ الخفيّ الذي أحسُّه الآن يُلاَمِسُ جوانحي ويتغلغلُ في شِغَافِ فُؤادي.. أرسلتُ بصري إلى الأفق ليبتلع بَهَاءَ تنغير من فوق الجبال، ما أَبْهَى النخيل الذي يُطَرّز البلدة كلها! وما أروعَ سجّادَ السماء الأزرق وهو باسطٌ جناحه الممتدّ في التيه وبرْدِ المساء والشمسُ تلفظ أنفاسها في ذيل هذا الجناح..!

عُدْتُ إلى يدي المعروقة، ليس في يدي غيرُ مقطعٍ مَبْتورٍ من قصيدة موحى"صهيل فراشة من تنغير" أرددُهُ والدموعُ تكتظُّ في حلقي ومآقيّ وتبلّلُ الرسالة، وتحجبُ عني رؤية حروف الرسالة المبتورة، وتحجبُ عني النظر جيدا إلى بساط السماء البنفسجيّ من فوقي - والذي إخالُه الآن سَيُنِيخُ بأنفاسِهِ على كَلْكَلِي- فلا أدري ما مآلُ الرسائل:

كيفَ أرسمُ عينيْكِ
والقلبُ يرتلُ
وصايا القمر
والنايُ فيكِ
لم يرتوِ
منهُ المطر؟
.....

مع تحيات التلميذ بورحيم، مستوى الثانوي الإعدادي، ثانوية زايد أوحماد: عثرتُ على الرسائل في رحلةٍ مدرسيةٍ مع أصدقائي، داخلَ أخدودٍ مِنْ أَعْلَى مَضايِقِ تودغى، فَقَدَّمْتُهَا لِجارَتِنَا بأسفالو أمّ موحى التي لا تقرأ ولا تكتب..

تنغير ٢٠١٥.

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع